ألبيرتو مورافيا

دعابات الطقس الحار

قصص

ترجمها عن الانكليزية
خالد الجبيلي

دعابات الطقس الحار

- دعابات الطقس الحار

- قصص

- ألبرتو مورافيا

- ترجمها عن الانكليزية خالد جبيلي

- غلاف نديم أدو

- إخراج وتنضيد دار القبس

- الطبعة الأولى 2000

- عن دار عبد المنعم ـ ناشرون

دار عبد المنعم ـ ناشرون

مؤسسة ثقافية تعنى بنشر الأدب والفكر العربي والعالمي

سورية ـ حلب ـ شارع القوتلي ـ تلفاكس 2214 512 ـ ص.ب 6567

ألبرتو مورافيا

مقدمة

أديب إيطالي

ولد "ألبرتو مورافيا" في "روما" ١٩٠٧ تعلم في طفولته اللغات الفرنسية والألمانية والإنكليزية وعمل في شبابه مراسلاً أجنبياً لعدة صحف في "لندن" و"باريس" وأماكن أخرى وخلال حكم الفاشي "موسيليني" منعت كتبه. اختبأ في الجبال إلى أن تحررت "إيطاليا" في أيار ١٩٤٤.

وضع "مورافيا" قاعدةً لأدبه واستطاع أن يلتزم بها منذ وضع أول رواياته "المستهترون" التي تناول فيها الجانب المترف من مجتمع "روما" فكان نصيبها أن صادرتها الحكومة الفاشية في ذلك الحين.

والقاعدة المنوَّه عنها هي أن يحلل الحياة حوله من النواحي النفسية والفلسفية والاجتماعية. وبناء على هذا واجه "مورافيا" من السلطة الفاشية صعوبات كثيرة إذ عُدَّت رواياتُه نقداً للمجتمع الذي انتعشت فيه الفاشية في "إيطاليا" وكانت قصته مع هذه السلطة ، قصةَ الكاتب الحر الذي رفض بذل مواهبه للفاشيين ، وأن يسيرَ في ركابها بل أصرَّ أن يضيف إلى الأدب الإيطالي ثروةً جديدةً تجعله يساير آداب الدول الأوروبية

الأخرى وجاوز بذلك كل ما برجو إذ اسنطاع أن يسير بالأدب الإيطالي جنباً إلى جنب مع الأدبين الفرنسي والإنكليزي اللذين كانت كلُّ الظروف تساعدهما على الانطلاق الحر، وخاصة بعد قيام الحرب الكونية النانية.

نال "مورافيا" أكبر جائزة إيطالية عام ١٩٤٥ عن روايته "أحوسنينو" أو "الخطيئة الأولى" ويرى بعض النقاد أن هذه الرواية تناولت بصراحة ظاهرة التطور في المجتمع الإيطالي. و لم يترلق "مورافيا" في قصصه ورواياته هذه إلى الابتذال، وإنما هو محلِّلٌ نفسيٌّ ثاقبُ الملاحظة يتصدَّى لعلاج موضوعاتٍ شائكةٍ كان يتهرَّب منها كثيِّر من الكتَّاب.

في مجموعتنا القصصبة هذه "دعابات الطقس الحار" نرى أنه يصوِّرَ الحياةَ ويحلِّلَ نواحيها النفسيةَ والاجنماعيةَ حيث يرى في هده الحالات غبرَ ما نرى فيركِّزُ عليها ويتعمَّقُ في فهم شخصياهما ويُنطقها كأنها أناسٌ حقيقيون من هذا المجتمع ويترك مهمة علاجها لأصحاب هذا العلاج ممن تخصَّصوا في تلك النواحي . فهو كالعالم الذي يرتاد الميادين العلمية ليمَهِّدَ السبيلَ إلى المخترعين.

وغنيٌّ عن البيان أن هذه النصوصَ التي تتضمنها المجموعة يربط بيبها في الحياة والأسرة والنفس البشربة حيث يأخذ بها الكاتب مصعِّداً إلى البساطة الواقعية غير المعقدة بعيداً عن الهاوبة.

ومما يكاد يُجْمِعُ عليه كثيِّر من النقَّادِ المنصفين ، أن مؤلفات "مورافيا" ستظل مورداً ثراً يمدُّ الأدبَ الابطاليَّ المعاصرَ والعالميَّ بما كان يفتقده ، أعني بالقصة والرواية التي تحلِّلُ الأحلاق والسلوك والطباع والنفس ، وبهذا

اكتسب شهرةً عالميةً ، جعلته بفوز بتقدير كبيرٍ جعل مؤلفاتِـــه تُـتَرْجَمُ إلى معظم اللغاتِ الحيَّةِ ومنها العربية.

وقد آثرت دار عبد المنعم – نـــاشرون – حـــين اختـــارت قصصـــاً "لمورافيا" – أن تكون ملائمةً للذوق العربي ومقاربةً لجوِّه وحياة أفراده.

وستلمس عزيزي القارئ ذلك في أكثرِ قصص هذه المجموعة فهي تكاد تكون عربيةً لولا الأسماءُ الأجنبيةُ لأبطالها.

ويسرُّنا أننا قدمنا إليك باقةً من أدب "ألبرتو مورافيا" مترجمةً ترجمـــةً كاملةً وأمينةً وممتعةً.

الناشـــــــــــــــــــر

المشي خلال النوم

يعرف الجميع أن زوجي لا يعمل شيئاً، في حين أقوم أنا بعمل كل شيء. لكني أجانب الحقيقة إن قلت إن زوجي لا يعمل شيئاً. فهو يعمل أشياء كثيرة جداً. بل إنه أكثر الرجال الذين عرفتهم في حياتي انشغالاً وانهماكاً. لكنه مشغول بماذا؟ إنه مشغول، على الدوام، برسم الخطط لاصطياد النساء.

إنه باختصارٍ منهمكٌ في خداعي. هل يمكن لامرئ أن يتصور أن إقامة علاقات غرامية ــ مع عدة نساء في آن واحد: إذ كان على علاقة بثمانية منهن في الآونة الأخيرة ــ يعني أنه لا يفعل شيئاً؟ إن من يقرُّ بذلك لا يعرف تماماً ماذا تعني إقامة علاقات غرامية، حتى لو اقتصر الأمر على التفكير دائماً في خداعي، وتحايله لإخفاء هذه العلاقات عني، وعن النساء اللاتي يقيم معهن علاقات غرامية، كي لا يُفتضَح أمرُهُ، ويَنْعَتْنَهُ بعدم الإخلاص. لذلك فإن زوجي بحاجة إلى كل لحظة من وقته، حتى لو كان وقت فراغه، بل حتى لو حَرَمَ أجفانه من النوم.

لقد احتملْتُ خياناتِهِ لي خلال السنوات الخمس الأولى من زواجنا، لكني قررت أخيراً أن أنتقم منه. وعلى الرغم من أنه كان بوسعي، في كلِّ حال، أن أطلب الانفصال بشكل رسمي، إلا أن عيباً واحداً يتملَّكُني كان يَحُولُ دون ذلك. فقد كنت أحبه، وكلما خانني أكثر، ازداد حبي له اضطراما. وما دمت غير قادرة على الانفصال عنه بسبب حبي له، شرعت أفكر بطريقة غريبة كي أنتقم

منه. باختصار: قررت أن أقتل زوجي.

من عاداتي الغريبة المشي وقت النوم. ففي أغلب الأحيان، أنهض ليلاً من سريري، أنحني قليلاً، وقد غشى وجهي شحوب مميت، وعيناي الكليلتان تحدقان، وقد تناثر شعري الأجعد على كتفي. أرفع يدي وأمسك المشلح وأباعد طرفيه واسعاً، وأبدأ السير في أرجاء البيت. ويعلم زوجي وخادمتُنا "لينا" بهذه العادة، ويحرصان على عدم إيقاظي.

وفي العادة أطوف أرجاء البيت، وأجول في الغرف وأفتح الأدراج ، فأخرج منها الأشياء وأبعثرُها. كما أني أتحاشى دائماً الارتطام بقطع الأثاث بشكل يثير الدهشة، ثم أقفِلُ عائدةً إلى سريري. كما أن بعض الجيران على علم بهذه العادة، فقد خرجت في إحدى الليالي من البيت وقرعت جرس الشقة المجاورة لنا.

وكما هو معروف، يمكن للإنسان الذي يسير في نومه أن يؤدي أشياء بالغة الدقة والتعقيد في نومه، والتي تتطلب منه مهارةً ووعياً فائقين لو كان مستيقظاً. وفي الواقع، فإن الشخص الذي يسير في نومه، يشبه الممثل الذي يؤدي دوره على خشبة المسرح، فيتقمص الشخصية التي يمثلها، حيث تتملكه في هذه الحالة، مواهب فائقة، وتكبت مواهب أخرى. كما أن الحلم الذي يحلمه ـ والتمثيل في حالة الممثل ـ يشحذ أحاسيسه، ويجعل حركاتِهِ دقيقة ومعصومة عن الخطأ. لذلك، خطّطت بالتظاهر بالمشي وقت النوم؛ وبدلاً من القيام بالأشياء التي أجريها على عادتي، مثل تحريك الكراسي، وفتح الأبواب، والعبث في الأدراج ، سأقوم بكل بساطة بقتل زوجي بإطلاق النار عليه من المسدس. إذ يمكن للسائر في نومه أن يفعل

أيَّ شيء: وفي جميع الأحوال، فإن إطلاق النار من مسدس أسهل من السير بين الأفاريز بيدين ممدودتين. وكأن شيئاً لم يكن، سأعود إلى سريري في غرفتي لأجد نفسي، عندما أفيق في صباح اليوم التالي، أرملةً، فتنتابني حالةٌ من اليأس والحزن يَسْهُل تصديقُهُمَا.

قررت أن أُنَفِّذَ خطتي بسرعة. وفي مساء اليوم المحدَّد، تناولت طعام العَشاء وحدي. فقد تذرَّع زوجي بعذرٍ واهٍ (إذ ادَّعى أنه سيتناول طعام العشاء مع عدد من زملائه الذين تخرَّجوا معه في الكلية نفسها، وأكد عدم وجود أي عنصر نسائي)، بالرغم من أني كنت واثقةً من أنه في صحبة إحدى خليلاته. بعد العَشاء، أمضيت أربع ساعاتٍ في غرفة الجلوس، أُدَخِّن وأشاهد التلفزيون وأتصفَّح الجرائد والمجلات. انتابني شعورٌ بالتوتر، وسرى الخَدَرُ في جسمي. كان رأسي خاوياً من أيَّةِ فكرة: لعلني كنت أمرُّ في إحدى حالات السير في النوم. عاد زوجي عند الساعة الواحدة، وإمعاناً في إهانتي، لم يُكلِّفْ نفسه عناءَ إلقاء أية نظرةٍ إلى غرفة الجلوس ليلقي علي التحية ويقبلني قُبْلَة النوم. بل اتجه مباشرة إلى غرفة نومه، وأوصد الباب. هرعت إلى غرفتي. فخلعتُ ثيابي، واستلقيت على السرير، وأمضيت أربع ساعات أخرى أُدَخِّن في الظلام. ومن الغرابة أن المرءَ لا يجد متعةً في التدخين إذا لم يشاهد الدخان وهو يتصاعد دوائرَ في سماء الغرفة.

وعند الساعة الخامسة، كما كنت قد حدَّدْتُ مسبقاً، نهضتُ من السرير. فنزعت قميص النوم، ثم تلفَّحْتُ بالمشلح. وهذا ما كنت أفعله كما يبدو عندما كانت تنتابني إحدى حالات السير وقت النوم. إلا أنني هذه المرة، توجَّستُ في نفسي خيْفة. لأني كنت أشعر بثقل مسدس زوجي، الذي أخذته ذلك اليوم من

الخزانة التي يحتفظ به فيها، في قعر جيبي. انتابتني حالة من التردُّد، غير أن إرادةً قوية، كتلك الإرادة التي تدفع الممثل وهو يهمُّ بدخول خشبة المسرح، دفعتني. توجَّهت نحو الباب. فتحته ومشيت في الممر. لم يكن ممراً بكل معنى الكلمة. فقد كان ممراً ضيقا تحفُّه الخزائن والرفوف المكتظَّة بالكتب من الجانبين، ونحت الضوء الخافت الصادر عن مصباح أو مصباحين، اندفعتُ إلى الأمام متشنِّجة مثلَ تمثالٍ من المرمر. ورحت أتهادى وأنا ممتلئة فخراً، وعيناي تُحَدِّقان، وشعري الأشعثُ يتطاير. أمسكت بكلتا يديَّ طرفي المشلح، وفتحته تماما، ودفعت صدري إلى الأمام، وراسي إلى الخلف. بهذه الطريقة، كنت أسير في نومي، كما ذكر لي زوجي و"لبنا" مراتٍ عديدةً.

أخذت أتقدم خطوة خطوة حتى وصلت إلى نهاية الممر، حيث كانت تقع غرفة نوم خادمتنا "لينا". وهي امرأة سلافية، فارعة، نحيفة، متقدمة في العمر. إذ أردت أن تراني كي تكون شاهدة من طرفي. أدرت مقبض الباب ببطءٍ شديدٍ. فتحته ورحت أجيل النظر داخل الغرفة. كنت أقف أمام الغرفة متشنجة أشبه بالموتى.

كانت مفاجأة كبيرة بانتظاري. فمن خلال الضوء المنبعث من الممر، رأيت سرير "لينا" مجعداً وخالياً. وكانت الأغطية مرمية على أحد طرفيه، كأنَّ "لينا" قد غادرت الفراش منذ مدةٍ قصيرة. ولسبب لا أدري كنهه، اعتراني شعورٌ مفاجئٌ بالشك أن جزءاً من خطتي قد باء بالإخفاق.

غذذت خطاي وجسدي متشنج كأنني إنسانٌ آليٌّ. ألقيت نظرة إلى الحمام الذي تستخدمه "لينا" ثم الحمام المخصص لنا. فلم أجد أحداً. تساءلت أين

يمكن أن تكون قد ذهبت في الساعة الخامسة صباحاً؟! استمر شكي أن الحقيقة يشوبها خطأ غامضٌ. لكني عزمت على المضيِّ في تنفيذ خطتي دون شهادة "لينا". عاودت السير في الممر، وقمت بنفس الحركات التي كنت أنفذها خلال سيري في نومي: توقفت. سحبت كتاباً من الرف بشكل عشوائي. فتحته تظاهرت بقراءته، ثم أعدته إلى مكانه. عملت كل ذلك أملاً بأن يراني أحد (ولكن من؟).

اقتربت من باب غرفة زوجي. أدرت المقبض بحذر فتحت الباب تطلعت إلى الداخل انتابني الذعر عندما وقعت عيناي على "لينا"، "لينا" التي لم أجدها في غرفتها، والتي على الرغم من تقدُّمها في السنِّ كانت مفعمة بالنشاط والحيوية. كانت هناك مستلقية على سرير زوجي. وكان ظهرُها العاري ذو العظام الناتئة، ورأسُها المكسوُّ بالشعر الأصفر الأجعد متجهاً نحو الباب. كانت تتكئ على أحد كوعيها، ترمق زوجي بسعادة بالغة. أما زوجي، فقد كان مستلقياً على ظهره، وقد أسند رأسه على المخدة. كان صدره عارياً من دون غطاء.

مرةً أخرى شعرت أن ثمَّة خطأ يعتري خطتي، فلم يكن في حُسباني أن أرى ما أراه الآن، كما لم يكن بالإمكان التنبُّؤُ بما حدث. بَيْدَ أنه لم يكن أمامي الوقت الكافي لتمحيص هذا الشعور المزعج.

خيانة زوجي الجديدة، التي يصعب تصديقها، مع خادمتنا. مع امرأة متقدمة في العمر. مع امرأة يمكن اعتبارها واحدة من أفراد الأسرة. إنسانٌ قد أوليته ثقتي المطلقة، وكنت أتصورَّ أنه يتعاطف معي. كان لا بد من إنزال العقوبة لهذه الخيانة الضارية التي لا يمكن احتمالها.

أمسكت المسدس القابع في قعر جيبي. أخرجته ببطء وصوبته نحو السرير. ثم أفقت.

كنت أقف إزاء النافذة، متكئة بمرفقي على حافة النافذة، أجيل النظر في الحديقة. كانت تبدو أمامي شجرة لبلاب تغطي الجدار. وكان بإمكاني رؤية إحدى زوايا الحديقة، بسبب الضوء المنبعث من مصباح الشارع، مقعد مرمري حال لونُهُ إلى السواد بفعل الشجيرات الرطبة المحيطة به، والحوض ذو النافورة، وهي تبثُّ الماء المندفع من فرجة في صخرة اصطناعية فيرتفع في الهواء كشريط رفيع جداً، وقد انعكس عليه الضوء. ثم يعود ويسقط في حوض الماء المعتم. كانت تلك أكثر لحظات الليل هدوءاً وسكينة. ولو لم أكن أسمع صوت النافورة، لظننت أني أحلم. سرت في جسدي قشعريرة، عندما هبت نسمات باردة، فشددت المشلح حول صدري. وعلى حين فجأة تبينت أنه لم يكن في جيبي مسدس.

كان واضحاً أن نوبة السير في النوم قد انتابتني. ففي نومي، نهضت عن السرير. توجهت إلى النافذة. فتحت النوافذ، ورحت أنظر إلى الخارج. لكن ماذا عن الخطة التي أعددتها لقتل زوجي، وأنا أتظاهر بالسير في نومي؟ لا بد أن ذلك لم يكن سوى حلمٍ داخل حلم. فقد حَلَمْتُ أنني أتظاهر أني أحلم، وأني أسير في أرجاء البيت، كما لو كنت في حُلْمٍ. غير أن شيئاً ما خلال حُلْمِي، جعلني أدرك أني لم أكن أتظاهر أني أحلُم. لقد كنت أحلُم فعلاً. ولكن بماذا أحلُم؟ بالعلاقة الغرامية التي لا يمكن تصديقها بين زوجي و"لينا". الوهم المجنون ، الغيرة التي تتملكني.

إلا أنه لا يوجد ثمَّة شيءٌ مؤكد. فقد خطر لي أن زوجي

قد وصل في خلاعته إلى حد إقامة علاقة مع خادمة متقدمة في السن. لعلي أطلقت النار عليه بالمسدس، ولعلي رميتُه بعد أن أطلقت النار عليه.

عدت إلى غرفتي. واستيقظت أخيراً. مَنْ بوسعه أن يقول الحقيقة؟ إن الخلط بين الغيرة والسير في النوم، والأوهام التي راودتني لم تترك مجالاً لأن أنبذ هذا الاحتمال. اعتراني الخوف الآن، وخشيت أن أبتعد عن النافذة كي اتأكَّدَ من حقيقة ما جرى. تسمَّرْتُ في مكاني، وأنا لا أزال أتكئ على حافة النافذة، وأتطلع إلى الحديقة. لعلي كنت احلمُ ولمَّا أستيقظْ بعد.

زوجتي لا تقول لا أبداً

كي أعطيكم صورة واضحة عن شخصية "أديل"، سأروي لكم ما حدث في ليلة زفافنا: فبعد انتهاء حفلة العشاء التي أقمناها في أحد المطاعم في "تريستفر"، وبعد تبادل الأنخاب والأمنيات الطيبة، وإلقاء القصائد؛ وبعد المعانقات وذرف الدموع من قِبَلِ حماتي، انطلقنا إلى منزلنا في شارع "ديل أنيما". ها قد أصبحنا الآن زوجاً وزوجةً، وكان قد اعترانا شيءٌ من الخجل وسرعان ما بدأت أخلع سترتي حالما دلفنا إلى غرفة النوم.

وفيما كنت أعلقها على ظهر الكرسي، قلت لها "أكَسِرُ الجليدَ بيننا" إن ذلك يجلب الحظ... "هل لاحظت؟ لقد كنا ثلاثة عشرَ شخصاً على الطاولة". كانت "أديل" قد انتهت من خلع حذائها الجديد الذي سبَّب ألماً لقدميها، ووقفت أمام المرآة تتطلّعُ إلى صورتها المنعكسة. أجابت على الفور بطريقة تنمُّ عن السرور، كما لو أن ما قلته قد أزال خجلها فوراً: "لا.. يا "جينو".. كنا اثني عشر.. عشرة ضيوف ونحن الاثنان... وهذا يعني إننا كنا اثني عشر".

كنتُ قد أحصيت عدد المدعوين عندما كنا في المطعم ــ كي أعرف عدد الطلبات بدقة ــ وكان عددهم ثلاثة عشر شخصاً، وهذا ما جعلني أقول "للودوفيكو"، أحد الشهود الأربعة على زواجنا، "إنه يوجد ثلاثة عشر شخصاً،

وآمل ألا يكون ذلك فألاً سـيئاً" فأجـابني: "لا، أبـداً، علـى العكس، فإن ذلك يجلب الحظ السعيد".

جلست على حافّة السرير ورحت أخلع بنطالي، وأجبتها بهدوءٍ شديدٍ: "أنت مخطئة... فقد كـان هنـاك ثلاثـة عشـرَ مدعواً.. وقد تنبَّهْتُ إلى ذلك تماماً، ولفتُّ انتباه "لودوفيكو" إلى ذلك". لم تَجرِ "أديل" جواباً في لحظتها، لأن رأسَـها ونصـفَ جسدِها كانا عالقين داخل ثوبها الذي كانت تخلعه، وهي تشـدُّه إلى الأعلى.

ولكـن مـا أن فرغـت مـن ذلـك، قـالت دون أن تنتظر لحظة واحدةً لتستعيدَ أنفاسـها: "لقـد عـدَدْتَ بشكـل خاطئ... فقد كنا ثلاثة عشرَ في الشـارع ــ ولكـن عندمـا ذهب "ميو" أصبحنا اثني عشر". كنتُ قد أصبحـتُ الآن فـي سروالي الداخلي، ولا أعرف لِـمَ انتـابني غضـبٌ مفـاجئٌ، فصحتُ في وجهها "تباً لك وللاثني عشر... وما دخل "ميـو" في كلِّ هذا؟؟... أقول لك: إني عددت جميع المدعويـن إلـى الحفلة". فقالت وهي تتجه نحو الخزانة لتعلِّـقَ ثوبـها: "هـذا يعني أنك عندما عددتهم، كنتَ قد شربتَ حتى ثملتَ... هذا كل ما في الأمر".

"ماذا تعنين ــ شربتَ حتى ثملتَ ــ؟ فأنا لم أشرب سوى كأسين فقط". فأجابت: "في جميع الأحوال، كان في الحفلة اثنـا عشر شخصاً، وأنت لا تذكر ذلك، لأنك كنـتَ سـكران، وإن ذاكرتَكَ تخدعك". "من كان سكران؟ ... ماذا تعنيـن؟... لقـد كنا ثلاثة عشر". فردَّت: "أقول لك إننا كنا اثني عشر" "ثلاثـة عشر... " "اثنا عشر" .

كنا الآن نقف وجهاً لوجه، وفي وسط الغرفة أنـا فـي سروالي الداخلي، وهي في تنورتها الداخليـة. أمسـكتُها مـن ذراعها وصحتُ في وجهها "ثلاثة عشر" إلا أني غيَّرْتُ رأيـي

على الفور، ورحت أدمدم وأنا أحاول أن أضمَّها إلـــيَّ "ثلاثـــة عشر أو اثنا عشر ... ماذا يهم... أعطني قُبلـــةً الآن". ألقـــت بنفسها على السرير، ولم تمانعْ في منحي القبلة، إلا أنه مـــا أن قاربت شفتاي شفتيها حتى همسَتْ: "نعم ولكننا كنا اثني عشر". وَثَبْتُ واقفاً على قدمي وابتعدتُ عنها. وقفتُ في وسط الغرفـــة وصحتُ "إنها لبدايةٌ سيِّئةٌ... إنك زوجتـــي ويجـــب عليـــك أن تطيعيني. فإذا قلت لك: إننا كنا ثلاثة عشرَ، فهذا يعني أننا كنا ثلاثة عشرَ، ويجب عليك ألا تعارضيني". عندها نهضَتْ عـــن السرير، وصاحت بصوت حادٍّ:" وأنا زوجتك، أو على الأصحِّ هكذا سأكون... لكننا كنا اثني عشر". "خذي إذن، كنـــا ثلاثـــة عشر" وهكذا صفعتُها على خدها أول صفعة، ويـــا لـــها مـــن صفعة رنانة.

بدا لوهلةٍ أن "أديـــل" أصابـــها الذهـــول، ثـــم هُرعـــت نحو باب غرفة الجلوس. فَتَحَتْـــهُ ووقفـــتْ هنـــاك وراحَـــتْ تصرخ:" كنا اثني عشر... دعني وشأني الآن ... إنـــك تثـــير اشمئزازي". واختفَتْ وراء الباب. بعد هنيهـــةٍ مـــن الدهشـــة مما حـــدث، ثُبْـــتُ إلـــى رشـــدي، واتَّجـــهتُ نحـــو البـــاب. صِحْتُ. طرقْتُ. توســـلْتُ، ولكـــن لـــم ينـــد عنـــها صـــوتٌ واحدٌ. وكانت النتيجة أنني أمضيـــتُ ليلـــةَ زفـــافي وحيـــداً، أغفو وأفيق، وأنا مســـتلقٍ علـــى الســـرير مرتديـــاً نصـــف ثيابي. وأظن أنها فعلت الشيء نفسه، ونامت علـــى الأريكـــة في غرفة الجلوس.

وفي اليوم التالي اتَّفقنا علـــى الذهـــاب لزيـــارة أمـــها، وهناك سألتها عن عدد الأشخاص الذين كـــانوا فـــي الحفلـــة، فتبيَّنَ أننا كنا أربعة عشـــرَ، وكـــان هنـــاك صبيَّـــان أمضيـــا معظم وقتيهما يلعبـــان تحـــت الطاولـــة. فعندمـــا أحصيـــت عدد المدعوين، كان أحد الصبيَّيْن تحـــت الطاولـــة، وعندمـــا

عَدَّتهم :أديل" كان الصبيَّان قد اختفيـــا. وهكـــذا كـــان كلانـــا محقاً، غير أن "أديل" كانت مخطئة زوجةً.

حدثت بعد ذلك أمور وأشياء لا حصـــر لـــها، أظـــهرت فيها "أديل" ذلك الجـــانب المشـــاكس مـــن شخصيتـــها. فقـــد كانت مغرمة إلى حد الهوس بـــالجدال حـــول أي شـــيء وإن كان تافهاً. فإذا قلت لها: "أبيض" قالت: "أسود". ولـــــم تسـلِّمْ، ولم تعترفْ قط أنـــها كـــانت مخطئـــة. وإذا أردت أن أســـردَ هذه القصص، فلن تنتهي: فعلى سبيل المثـــال، أصـــرَّت فـــي أحد الأيام أنها لم تتلقَّ مصـــروف البيـــت، وبعـــد جـــدال دام ما يقرب من أربع وعشريـــن ســـاعة دون توقُّـــفٍ أو ملـــلٍ، وجدت النقود مركونة علـــى حافـــة النـــافذة الصغـــيرة فـــي المغسلة تتنسم الهواء العليل.

وعلى كلٍّ حال فقد استمرَّ النقاش لأنها أصرت على أنني أنا الذي ركن النقود على حافة النافذة، في حين أثبـــتُّ لـــها، بإيراد عدد من الوقائع والإثباتات، بأن ذلك كان مـــن ضـــرب المستحيل، وأنها ذهبت إلى تلك البقعة الصغيرة المظلمة، بعـــد أن أخذت مني النقود وليس قبلها.

أو في تلك المرة، عندما أصرَّتْ بعنادها المعهود علـــى أن "السندور" النـــادل فـــي المقـــهى المقـــابل لبيتنـــا، لديـــه أربعة أطفال، في حين كنت متأكّداً أنه كان لديه ثلاثة أطفـــال. ورحنا نتجادل مدة أسبوع كامل لأن النادل كان فـــي إجـــازة. وعندما عاد اكتشفنا أنه كان لديه ثلاثة أطفـــال عندمـــا بدأنـــا الجدال، وأصبح لديه أربعة الآن بعد أن حَظِيَ بمولودٍ جديـــدٍ. وبالطبع، فقد كان ذلك أمراً في غاية السخافة.

وكما يحدث عادة في مثل هـــذه الأمـــور، كنـــت فـــي بعض الأحيان على صواب، وفـــي أحيـــانٍ أخـــرى، كـــانت هي على صواب. إلا أن الشـــيء الـــذي حـــاولت عبثـــاً أن

أفهمها إياه، هو أنه ليس من المهم أن يكون المرء مصيباً، إلا أن ولعَهَا في الجِدال حَولَ أيٍّ شيءٍ وإن كان تافهاً، سيؤدي إلى تدمير كل شيء في حياتنا. غير أنها كانت تجيب على ذلك: "إنك لا تريد زوجة بل خادمة". وهكذا أصبحت علاقتنا، نتيجة جدالها المستمر، مشحونةً ومتوترةً، وكنت كلما هممْتُ أن أقول شيئاً لها حول موضوع لا يقبل الجدل مثل "إن اليوم مشمس" يجتاحني الغضب عندما يخطر لي أنها ستعارضني؛ وبالفعل، كانت تقول رداً على ذلك ودون تردُّد "آه... لا يا "جينو"... فالشمس ليست مشرقة اليوم بل إن السماء ملبدة بالغيوم". فآخذ قبعتي، وأندفع خارجاً من البيت لأني أعرف أنني إذا بقيت لحظة أخرى أستمع إليها فسأنفجر غضباً.

ذات يوم، وبينما كنت أسير في شارع "ريبيتا" التقيت "بجوليا" الفتاة التي كنت أغازلها قبل أن أتعرف "بأديلا" بمدةٍ وجيزة. غير أني كنت قد سئمت منها بسرعة لأنها لم تكن تتمتع بشخصية مستقلة، فكانت توافقني على كل شيء أقوله لها، ولم تقل مطلقاً إني كنت مخطئاً، حتى عندما كان بوسع أعمى أن يجدني مخطئاً.

أما الآن، وبعد أن تزوجت من امرأة تتمتع بشخصية مستقلة ونعمت بذلك، شعرت بالندم لأني لم أتزوج "جوليا" التي كانت تقطر رقّةً وحلاوةً، وانتابني شعورٌ عميقٌ بالندم لأني فضّلْتُ "أديل" عليها. غمرتني سعادةٌ كبيرةٌ عندما التقيتُها هذا الصباح، لا لشيء إلا لأنها تختلف في شخصيتها عن شخصية "أديل". وعندما حاولتْ توديعي بحجة الذهاب إلى السوق، طلبتُ منها البقاء قليلاً والتحدث كي أحظى بمتعة رؤيتها وهي توافقني على كل شيء. كانت لا تزال جميلة، ولم

تعارضني قط. وكي أختبرها قلت لها: "الا تشعرين بالندم لأنك عاملتني بهذه الدرجة من السوء؟ هل أدركت أني أفضل من كثير من الرجال؟؟ أخبريني، لماذا لم ترغبي في الزواج مني؟" علماً أني على يقين من أن ذلك لم يكن صحيحاً. فقد كنتُ أنا الذي تركتُها، وقلت لها آنئذٍ: "إني لا أعبأ بالنساء الطيِّعات جداً من أمثالها". لكنني وددت أن أسمع ردها على هذه الإدانة الكاذبة المجحفة. عندما سمعتني المسكينة،وأنا أقول لها ذلك، فغرت فمَهَا من الدهشة.

من المؤكَّد أنها كانت تريد أن تردَّ أني أنا الذي عاملها بغاية السوء ــ وهذا صحيح ــ وأني أنا الذي هجرها. بَيْدَ أنها كشفت عن حقيقة شخصيتها وقالت بصوتها العذب الرخيم: "جينو"... لا بد أنه كان ثمَّة سوءُ تفاهم... لقد كنت مغرمة بك، ولو كان الأمر بيدي لما تركتك أبداً". وستلاحظون أنها لم توجه لي اللوم لأني كذبْتُ عليها، كما كانت ستفعل "أديل"، بل أخذت تحاول تبرئة نفسها، وكي تدخل السرورَ إلى نفسي، أقرَّت أن جزءاً من ذلك الخطأ ربما كان يقع علي. أطلقتُ ضحكة مشوبة بالمرارة عندما تذكرت الحماقة التي ارتكبتها إذ فضَّلْتُ "أديل"عليها... ثم قلت لها وأنا أداعب خدها الأسيل: "أعرف أن الخطأ يقع عليَّ بالكامل، ولسوء الحظ لم يكن ثمة سوء تفاهم... إن الخطأ بأكمله يقع على كاهلي... لقد قلت لك ذلك دون أن أعني ما أقول... بل لأرى كيف سيكون ردك"، داعبت خدها ثانية، فاكتسى وجهها بالحمرة من البهجة، وابتعدتُ مسرعاً. غير أنني قبل أن أنعطف عند ناصية الشارع، التفتُّ إلى الوراء. كانت ما تزال واقفة هناك على الرصيف وحقيبتها تتدلى من يدها وهي تحدِّق بي، وقد ملأتها الدهشة والحيرة.

في أواخر أيار تقريباً، ذهبت أنا و"أديل" إلى "فريجن" كي نسبح. كان الشاطئ مهجوراً، وكانت السماء زرقاء صافية، والشمس متألّقة تبهر الأبصار بأشعتها، لكن الرياح كانت تهب بقوة على مستوى منخفض. رياح قوية لاسعة، محملة بحبات الرمل. وكانت الأمواج قرب الشاطئ تهدر بقوة. أمواج زرقاء وبيضاء تعلو فوق بعضها بعضاً، وتتصادم ثم تتلاشى. وكان الزبد الأبيض يتناثر على بعد مسافة قليلة داخل البحر.

قالت "أديل" إنها ترغب في القيام برحلة في القارب، بالرغم من أن البحر لم يكن رائقاً، بل في حالة هياج. وكي لا أرفض طلبها، وأسمع ما لابدَّ من سماعه من أن البحر هادئ ولطيف جداً، استأجرت على الفور قارباً. كنت أرتدي لباس السباحة بينما كانت "أديل" ترتدي ثيابها كاملة. وخشية الدخول معها في جدال عقيم، لم أطلب منها أن تخلع ثيابها. دفعنا المشرف قليلاً في الماء. ورحت أجدّف بقوة بكلتا يدي فوق الأمواج الهادرة ، وما إن ابتعدنا قليلاً في الماء حتى بدأتُ أجدِّف ببطءٍ وسهولة أكثر فقد كنت أحرص على مواجهة الأمواج من مقدمتها، لأني إذا لم أفعل ذلك فمن المحتمل أن ينقلب بنا القارب.

كانت "أديل" تجلس في مقدمة القارب، تعلو وتهبط مع حركة الأمواج وعلى حين غِرَّة، عندما تطلعت إليها ورأيت أنها ترتدي ثيابها كاملة، وتذكرت أني لم أجرؤ على نصحها بخلعها، وارتداء لباس السباحة اعتراني الغضب، واجتاحتني رغبة في أن أخبرها بأني التقيت "بجوليا". وفيما كنت أجدف، أخذت أحكي لها كيف أني أردت أن أختبر شخصية "جوليا"، وكيف أنها

لم تعارضني. أصغت "أديـــل" بينمـــا كـــان القـــارب يعلـــو ويهبط مع الأمواج العاتيــــة، وفـــي النهايـــة قـــالت بـــهدوء: "أنت مخطئ، إذ أن الخطأ يقع بكامله على عاتقـــــها... فـــهي التي تركتك".

أحكمت قبضتي بقوة على المجدافين لمواجهـــــة موجـــة كبيرة جداً، وأجبتها بغضب: "ومـــن قـــال لـــك إنـــي أود أن أعرف؟ ... أنا الذي أفهمّها ذات مساء أنه لم تعد لـــي رغبـــة بها... حتى إني أذكر المكان جيداً ... فقد كنا في "لنغتيفـــر"". كان شعر "أديل" يتطاير في الهواء، وأجـــابت وفـــي صوتـــها نبرة خبيثة: "كالعادة، فـــأنت لا تذكـــر جيـــداً... فـــهي التـــي هجرتك... لقد قالت: إن من طبعك حب الشجـــار والخصـــام، وهذا صحيح تماماً، وأنها لم تكـــن تشعـــر أنـــه بإمكانـــها أن تعيش معك".

ــ لكن من أخبرك بذلك؟

ــ هي التي قالت لي بعد بضعة أيام من زواجنا.

ــ هذا ليس صحيحاً. لقد قالت لك ذلك لتداري خيبتـــها، تعرفين قصة الثعلب والعنب الحامض.

ــ هي التي فعلت ذلك يا "جينو". لا تكن عنيـــداً، وقـــد أكدت لي أمّها ذلك.

ــ أقول لك إن هذا غير صحيح... فأنا الذي تركها.

ــ لا ... هي.

لا أعرف كيـــف تملّكنـــي الشيطـــانُ وقتئـــذٍ ... فقـــد كنت أحتمـــل أن تعـــارضني فـــي أي شـــيء ســـوى هـــذا الأمر. وأخال أن كبريـــائي الرجولـــي قـــد اســـتحوذ علـــيّ. تركت المجدافيـــن ووثبْـــتُ واقفـــاً علـــى قدمـــي، ورحـــت أصرخ: "أنا الذي تركتها... أقـــول لـــك ذلـــك وكفـــى... ولا أريد أن أسمع المزيد من الجـــدال حـــول هـــذا الموضـــوع،

وأقسم أنه إذا تفوهت بكلمة أخرى فسأضربك بالمجداف على رأسك".

ــ جَرِّب فقط ... إن غضبك لهو دليلٌ على أنك مخطئ... إنك تعرف تماماً أنها هي التي تركتك.

ــ لا ... أنا الذي تركها.

كنت واقفاً الآن في منتصف القارب، وكنت أصيح ــ كي تسمع صوتي بين هدير الأمواج ــ وكان القارب يعلو ويهبط. وعندما تركت المجدافين، أخذ القارب يميل جانباً.

أذكر أن "أديل" استوت واقفة كذلك، وراحت تصيح في وجهي: "هي"، وكانت تضع راحتيها حول فمها، وكأنهما مكبر للصوت. في تلك اللحظة، ارتفع جدار هائل من الماء، أخضر شفاف كالزجاج، يعلوه زبد أبيض. علت فوقنا ثم انثالت الأمواج داخل القارب وغمرتنا.

وجدت نفسي ملقًى خارج القارب، وبقدرة قادر لم ينقلب القارب. غصت على الفور إلى الأسفل، وشعرت بالمياه الهائجة تشدني من قدمي نحو الأسفل. غصت إلى القعر، وابتلعت قدْراً من الماء، ثم عدت أطفو إلى السطح ثانية، وأنا أصارع التيار وأنادي "أديل". عندما تطلّعت حولي وجدت أن القارب أخذ يبتعد عني، وأنه كان خاوياً، ولم تكن ثمة دلائل تدلُّ على وجود "أديل" عليه. ناديت اسمها ثانية، ورحت أسبح باتجاه القارب دون أن أعي ما كنت أفعله.

كان القارب يبتعد أكثر وأكثر مع ضربات الأمواج المتلاحقة، وفي كل مرة كنت أنادي فيها "أديل" كان الماء يملأ فمي. وقلت إن من العبث متابعة القارب بعد

أن أيقنت أن "أديل" لم تكن فيه. واستسلمت أخيراً، ورحت أسبح بشكل دائري بحثاً عن "أديل". إلا أني لم أجد أثراً لها، ولم أكن أرى سوى الأمواج، وهي تلاحق بعضها بعضاً باتجاه الشاطئ.

بدأت قوتي تخور، واعتراني شعورٌ بالخوف من الغرق فأخذت أسبح نحو الشاطئ. ولم تمض مدّة طويلة حتى أحسست أنّ قدميَّ تلامسان قعر البحر، على الرغم من ابتعادي عن الشاطئ. وقفتُ ورحتُ أصرخ.

وما هي إلا دقائق حتى شاهدت قارباً يندفع نحوي. وفي تلك اللحظة رحت أنظر حولي لعلي أجد أثراً "لأديل". لكن البحر كان خالياً على امتداد بصري، ولم أكن أرى سوى القارب الخاوي وهو ينجرف بعيداً، والمجدافين منفلتين.

رُحْتُ أنتحبُ وأصرخُ: "أديل... أديل" مراتٍ عديدةً بصوتٍ منخفضٍ، وكأني أقول ذلك لنفسي. وبدا لي أن هدير الأمواج قد ردت علي "كانت هي" كما لو أن صوت "أديل" التي تلاشت يحلّق في الهواء، لا تزال تعارضني. ثم وصل المنقذون، وأمضينا أكثر من ثلاث ساعات ونحن نبحث عنها، إلا أن جسد "أديل" اختفى، ولم يعثر عليه إلا في صباح اليوم التالي أو خلال الأيام التي تلت ذلك.

وهكذا أصبحت أرملاً... وبعد مضيٍّ عام استجمعت شجاعتي وذهبت للقاء "جوليا". قادتني أمها إلى غرفة الطعام، وعندما دلفت إلى الغرفة قلت لها: "جوليا... لقد جئتُ لأسألكِ: إذا كنت ترغبين في أن تصبحي زوجتي".

احمرَّ وجهها، وغمرتها السعادة، وأجابت بصوتٍ

ناعمٍ لذيذٍ: "لا أقول: لا، أبداً ... لكـــن يجـب أن أرى أمـــي أولاً". ذهلت من ملاحظتها الأولى، ثـــم أحسســتُ أن كلمـــة "لا أقول: لا، أبداً" فألاً حسناً.

تزوجنا، وإذا أردت أن ترى زوجين يعيشان فـــي وئـــام تامٍّ، تعال وانظر إلينا. فقد بقيت "جوليا" دائمـــاً كمـا كـــانت عليه ذلك الصباح عندما أجابتني: "أنا لا أقول: لا، أبداً".

الرضيع

عندما قامت المشرفة الاجتماعية من جمعية رعاية الطفولة بزيارتنا، وجَّهَتْ إلى زوجتي السؤال نفسه الذي كانت تطرحه على الجميع: "لماذا أنجبنا عدداً كبيراً من الأطفال إلى هذا العالم" أجابتْهَا زوجتي التي لم تكن يومها في مزاجٍ رائقٍ: "لو كنا نملك قَدْراً كافياً من المال، لذهبنا إلى السينما في كل مساء. ولكن بما أننا لا نملك مالاً، فإننا ننام مبكِّرَيْن وهكذا يأتي الأطفال".

عندما سمعَتْ السيدة هذا الجوابَ، ارتبكت ومضت دون أن تَنْبِسَ بكلمة. بعد ذلك لِمْتُ زوجتي وقلت لها: "إنه لا يصح أن نقول الحقيقة دائماً، وإنه إذا تعيَّن عليكِ قولها، فيجب أن تعرفي أولاً مع من تتعاملين".

عندما كنت شاباً، وقبل أن أتزوج، كنت أتسلى بقراءة الأخبار المحلية في الصحف التي كانت تصف جميع أنواع المصائب والنكبات التي يمكن أن تُصيبَ البشرَ مثل السرقات وجرائم القتل والانتحار وحوادث الطرق. ولكن الشيء الذي بدا أنه لا يمكن أن يحدث لي، من بين كل تلك النوائب، هو أن أصل إلى تلك الحالة التي تطلق عليها الصحف "وضعٌ يُرثى له".

شخص شديد البؤس، يستحق الرثاء والعطف دون أن يجد ملاذاً. وكما قلت، كنت وقتئذٍ شاباً، ولم أكن أعرف بعد معنى أن يُعيلَ المرء أسرة كبيرة.

أما الآن ولدهشتي العظيمة، فقد آلت أوضاعي شيئاً فشيئاً إلى الحالة التي يطلقون عليها "وضعٌ يُرثى له". فقد كنت أقرأ مثلاً: أن بعض الناس كانوا يعيشون في إملاقٍ، وهاأنذا أصبحت أعيش الآن في فقرٍ مُدْقِعٍ، أو أنهم يعيشون في بيت ليس له من صفات البيت سوى اسمه.

وهاأنذا الآن أعيش في "تورامارانشيو" مع زوجتي وأطفالي الستة، في غرفة لا يوجد فيها إلا عددٌ كبيرٌ من الفرش الممدودة على الأرض، وعندما تهطل الأمطار، كانت تهطل علينا كما لو كنا جالسين على مقاعد في شارع "ريبيتا". أو كنت أقرأ: أن تلك المرأة البائسة، اتخذت قراراً إجرامياً وهو أن تتخلص من ثمرة حبها بعد أن اكتشفت أنها حامل.

وهانحن الآن نتّخذ هذا القرار أيضاً. إذ اتفقنا أنا وزوجتي، بعد أن اكتشفنا أنها حامل للمرة السابعة، أن نضع طفلنا الجديد في إحدى الكنائس، ونعهد به إلى أول شخص يعثر عليه. وقررنا عمل ذلك فور تحسن الطقس وانتشار الدفء.

نتيجة للمساعي الحميدة لإحدى السيدات الطيبات، أُدْخِلَتْ زوجتي المستشفى لتضع وليدها. وعندما تحسَّنَ وضعُها الصحي، عادت إلى البيت مع الطفل. وما إن دلفنا إلى الغرفة حتى بادرتني قائلة: "هل تعلم أني أُفَضِّلُ البقاء في المستشفى بالرغم من كونه مستشفى وعدم العودة إلى البيت". إلا أنه ما أن تفوّهت بهذه الكلمات، حتى أطلق الطفل صرخة قوية كما لو أنه كان يفهم معنى كلماتها.

كان صبياً جميلاً، قوي البنية ذا صوت حاد. وكان يَحْرِمُ

الجميعَ النومَ عندما يستيقظ في منتصف الليـل ويجـهش فـي البكاء. عندما حلَّ أيار وأصبح الجو دافئاً.

وأصبح بإمكان المرء أن يخرج دون ارتـداء معطـف، هممنا بالذهاب إلى "روما". أمسكت زوجتي الرضيع وضمته إلى صدرها، وكان مقمطاً بكمية من الأسـمال الباليـة تكفـي لتركِهِ بأمانٍ في حقلٍ مكسوٍّ بالجليد.

وعندما وصلنا إلى المدينة ــ ربما لتـداري مـا جئنـا من أجله ــ أخـذت تتحـدث مـن دون توقـف، وقـد بـدا عليـها الإنـهاك وهـي تلـهث. وكـان شعرهـا مفترشـاً علـى كتفيـها، وعيناهـا جاحظتـان تكـادان أن تخرجـا من محجريهما.

وفي مرَّةٍ تحدثنا عن مختلـف الكنـائس التـي يمكننـا أن نترك طفلنا فيها، حيـث قـالت: "إنـها يجـب أن تكـون كنسية يؤمُّها الأغنياء، لأنه إذا ما أخـذ ابنَنَـا رجـلٌ فقـيرٌ فمن الأولى أن نحتفظ به لأنفسنا". ثم أخذت تلحُّ فيما بعد أنـها يجب أن تكون كنيسةً مكرَّسةً للسـيدة العـذراء، وذلـك لأن للعذراء ابناً ولذلك فسيكون بوسعها تفهُّم أمورٍ معينةٍ وستمنحها الأشياء التي ترغب فيها. وجدتُ طريقةَ الحديثِ هـذه مملَّـةً وأثارت حنقي وذلك لأني كنت أشعر بالخزي أيضاً ولم تَـرُقْ لي الفكرة التي نحن بصددها.

لكني رحتُ أقول لنفسي: "إنه يجـب أن أحـافظ علـى رباطـة جـأشي، وأن أبـدو هادئـاً وأن أثـير الحديـث بطريقة حيوية". أبديتُ عدةُ اعتراضاتٍ وذلـك كـي أقـاطعَ تدفُّقَ كلماتِهَا ثم قلتُ: "لديَّ فكـرةٌ ... لمـاذا لا نضعـه فـي كنيسة القديس بطرس؟"، ترددت لحظةً ثم أجـابت: "لا، إنـها كنيسةٌ واسعةٌ جداً، ومن الممكن أن لا يراه أحداً... من الأفضل أن نحـاول فـي تلـك الكنيسـة الصغـيرة الواقعـة فـي

شارع "كوندوتي" حيث توجد تلك المحلات الجميلة... حيث يؤمُّ الأغنياءُ تلك المنطقة إنه المكانُ المناسبُ".

استقلينا الحافلة. جلسَتْ واجمةً وسطَ الركاب. وكانت بين القَيْنَةِ والقَيْنَةِ تعيد ترتيب القِماط، وتشدُّه حوله أو تكشفُ عن وجهه بحذر، وتمعن النظر إليه.

كان الطفل يغطُّ في سُباتٍ عميقٍ، وكان وجهه الوردي يغوص في ذلك القِماط. وكان يرتدي مثلنا ثياباً مهلهلة؛ والشيء الوحيد الأنيق الذي كان يرتديه هو قفازاته الزرقاء الصوفية. وبالفعل فقد كان يمد يديه إلى الأعلى، وكأنه يسعى لإظهارهما. نزلنا في "لاركو غولدوني"، وعلى الفور أخذت زوجتي تتكلم.

وقفَتْ أمامَ واجهةِ محلِّ صائغٍ، وقالت وهي تشير إلى الجواهر المعروضة على الرفوف المغطّاة بمخملٍ أحمرَ: "انظر ما أجملها... إن الناسَ الذين يقطنون هذا الشارعَ يأتون إلى هنا ليشتروا المجوهرات وأشياء جميلة أخرى، أما الفقراء فلا يأتون إلى هذا المكان أبداً... وخلال تجوّلهم بين المحلات يدخلون إلى الكنيسة ليصلوا قليلاً... عندها سيجدون الطفل وهم في غمرة السعادة سيأخذونه".

قالت ذلك وهي واقفةٌ أمام الجواهريِّ، وهي تمسكُ الصبيَّ وتضمُّه بقوَّةٍ إلى صدرها. كانت عيناها واسعتين، وكأنها تحدِّث نفسَها، ولم أجرؤْ على معارضتِهَا.

دلفْنَا إلى الكنيسة. كانت صغيرة مطليَّةً بالدهان، حيث تبدو جدرانُهَا مثل مرمرٍ أصفرَ، وفيها محرابٌ مرتفعٌ، وأماكنُ عديدةٌ للصلاة.

قالت زوجتي إنها تذكر هذه الكنيسة بشكلٍ مختلفٍ، لكنَّهَا الآنَ وبعد أن رأتها للمرة الثانية، لم تعجبْهَا على الإطلاق. ومع ذلك، فقد غطسَتْ أصابعَهَا في الماء المقدَّس، ورسمَتْ

إشارةَ الصليبِ، وراحت تتمشى ببطء في أرجاء الكنيسة، وهي تضمُّ الصبي إلى صدرها، وهي تتفحَّصُهَا بإمعانٍ شديدٍ، وبدت على وجهها أماراتُ الامتعاضِ والشعورِ بعدم الثقة. كان نورٌ خفيفٌ يتسرَّب من أحد جوانب الكنيسةِ. وكانت تتفحَّص كلَّ شيءٍ حولَها، المقاعدَ، المحرابَ، الصورَ، لتتأكَّدَ من أن الكنيسة مكان لائق كي تترك الطفل فيه. أما أنا، فكنت أقف على بُعْدِ خطواتٍ منها أراقبُ الباب.

وفجأةً دلفت سيدةٌ شابةٌ فارعةٌ ترتدي ثوباً أحمرَ، وكان شعرُها أشقرَ كالذهب. جَثَتْ على ركبتيها، فانحسرت تنورتُهَا الضيِّقة. ولم تتجاوزْ صلاتُها دقيقةً واحدةً. إذ استوت واقفةً ورسمت إشارةَ الصليب على صدرها، وخرجت دون أن تتطلَّعَ نحونا. أما زوجتي التي كانت ترمقها فقالت فجأة: "لا، ... إنها ليست جيدة. إن الناسَ الذين يؤمُّون هذه الكنيسةَ يأتون بسرعةٍ كهذه الصبية ليمتِّعوا أنفسَهم بالتفرج على المحلات، هيا لنذهب من هنا". وهُرعَتْ إلى الخارج بسرعة. اجتزنا مسافةً لا بأس بها في طريق عودتنا إلى الشارع.

كنا نهرول. زوجتي أمامي وأنا وراءها. ثم دلفنا إلى كنيسةٍ أخرى تقع قرب ساحة فينسيا. كانت هذه الكنيسة أكبر من سابقتها بكثير، والظلام يغشوها، وتملؤها الزيناتُ المذهَّبةُ المعلَّقةُ في أرجائها. وكانت ثمة علبٌ زجاجيةٌ محشوَّةٌ بقلوبٍ فضية تلمع وتتلألأ في الظلام.

وكان هناك عددٌ من الناس الذين قدَّرْتُ بنظرةٍ سريعةٍ أنهم من الميسورين فقد كانت السيدات يرتدين قبَّعاتٍ، والرجال متأنقي الملبس. وثمَّةَ راهب يلوِّح بيديه وهو واقفٌ على المنبر يلقي موعظته. كان الجميع واقفين يتطلعون نحوه، وبدا لي أن ذلك أمراً جيداً لأنه لن

يتمكَّنَ أحدٌ من ملاحظتِنا. همسْتُ في أذن زوجتي: "هل نجرب تركه هنا؟" فهزَّت رأسَها موافقة.

دلفنا إلى حجرة للصلاة حيث يسود ظلامٌ دامسٌ. لم يكن هناك أحد، ويكاد المرءُ لا يستطيع أن يرى شيئاً. غطَّت زوجتي وجه الطفل بطرف الدثار المقمَّطِ به، ثم وضعته على أحد الكراسي، كما لو كانت تضعُ حزمة ثقيلة لتريح يديها. ثم جثَتْ وصلّتْ لمدَّةٍ طويلة، وقد أسندت وجهها على راحتيها، فيما رحت، وأنا لا أدري ماذا أفعل، أتطلع إلى مئات القلوب الفضية من مختلف القياسات والأحجام التي كانت تغشى جدران المصلّى.

وفي النهاية، استوت واقفةً على قدميها، وبوجهٍ متجهِّمٍ رسمت علامة الصليب، وابتعدت عن المصلّى ببطءٍ شديدٍ، وأنا أتبعُهَا على بُعْدِ خُطوات منها.

في تلك اللحظة نفسها، قال القسُّ بصوتٍ عالٍ: "قال السيد المسيح: يا بطرس إلى أين أنت ذاهب؟" أجفلتني العبارة، لأني ظننتُ أنه كان يخاطبني، ويلقي عليَّ هذا السؤال.

لكن ما كادت زوجتي ترفع طرف الستارة عند الباب، حتى أجفلنا صوتٌ صادرٌ من خلفنا قائلاً: "يا سيدتي... لقد نسيتِ صُرَّةً على الكرسيِّ هناك"... كانت امرأةً متَّشحة بالسواد، واحدة من تلك النساء التقيَّات الورعات اللاتي يقضين حياتهن بين الكنيسة والمصلى. فقالت لها زوجتي: "آه نعم ... شكراً... لقد نسيتها حقاً". فعدنا وحملنا الصُّرة ثانية، وخرجنا من الكنيسةِ، ونحن نشعرُ أننا أمواتٌ أكثر منا أحياء.

عندما خرجنا من الكنيسة، قالت زوجتي: "لا يريد أحدٌ أن يحتفظَ بطفلي المسكين هذا" قالت ما قالته كأنَّها بائعٌ يعرض شيئاً للبيع ويتوقَّع أن يعقدَ صفقة سريعة، إلا أنه لم يجد أحداً

في السوق يشتري منه بضاعته.

خلال ذلك، أخذت تهرول بطريقة تقطع الأنفاس، حتى إن قدمها لم تكد تلامس الأرض. خرجنا إلى ساحة "سانتي أبوستولي". كانت الكنيسة مفتوحة، وما إن دخلنا ورأت زوجتي أنها كبيرةٌ ورحبةٌ ومظلّلةٌ، حتى همست في أذني: "هذا هو ما نريد".

وبطريقةٍ عازمةٍ، مشت نحو المصلّى الجانبي، ووضعت الطفل على مقعد خشبي... ودون أن ترسمَ شارةَ الصليب، أو تدمدمَ بأيةِ صلاةٍ، أو تطبعَ قبلةً على وجه الطفل، هرولت نحو بابِ المدخل، كأنَّ الأرضَ تشتعلُ تحت قدميها. إلا أنها ما كادت تخطو بضع خطوات، حتى ارتجَّتْ أركانُ الكنيسةِ بصوتِ عويلٍ مجلجلٍ بائسٍ: فقد حانَ موعدُ إرضاعه. فأخذ يبكي بصوت مدوٍّ. لقد كان طفلنا دقيقاً في مواعيده!!.

ولعلَّ صوتَ البكاءِ العنيف هذا جعل زوجتي تَفقِدُ أعصابَها: إذ جرت أولاً نحو الباب، ثم عادت وهي لا تزال تجري؛ ودون أن تدري أين هي، جلسَتْ على المقعد الخشبي، وأخذت الطفلَ بين ذراعيها، ورفعت طرفَ بلوزتِها لتلقمَهُ ثديها. ولكن ما إن أخرجت ثديها، حتى تكالبَ عليه الطفلُ بكلتا يديه وراح يلتهمُ الحِلْمَةَ بجشعٍ ونهمٍ كالذئب.

توقّف عن البكاء، وما هي إلا لحظاتٌ حتى سمعنا صوتاً أجشَّ يصرُخُ بها مؤنّباً: "لا يمكنك أن تفعلي ذلك في بيت الله.. هيا اخرجي .. اخرجي إلى الشارع". تطلعنا إلى مصدر الصوت، ورأينا القندلفت الذي كان عجوزاً ضئيل الجسم، صغير الرأس وقد نبتت كَتّةٌ من الشعر الأبيض تحت ذقنه.

كان صوته أجشَّ لا يتناسب مع حجمه. قالت له زوجتي بعد أن وقفت وغطت صدرها ورأس الصبي بقدر ما تستطيع: "لكن السيدة العذراء، كما تعلم، وفي جميع صورها تمسكُ بابنها وتضمُّه إلى صدرها".

فرد عليها على الفور: "وهل توازنين نفسك بالسيدة العذراء؟ أيتها المرأة الدعيَّة المتبجِّحة". تركنا المكانَ بسرعةٍ، وذهبنا وجلسنا في حديقة ساحة فينيسيا؛ وهناك أخرجت للطفل ثديها ثانية، فراح يرضع حتى شَبِعَ وغطَّ في سُباتٍ عميق.

كان قد حلَّ المساءُ وأقفلت جميعُ الكنائس أبوابَها. كنا منهمكين، وفي حيرة من أمرنا. ولم نكن ندري ماذا عسانا أن نفعل. إن التفكير بما أقدِم عليه، وهو أمر كان يجب ألا أفعله، جعلني أشعر باليأس. قلت لزوجتي: "اسمعي الآن... لقد تأخَّر الوقت، ولا أستطيع الاستمرار هكذا. يجب أن نتَّخذ قرارنا الآن". فأجابت بشيء من المرارة: "لكنه من لحمك ودمك... هل تريدُ أن نلقيَهُ في أي مكان؟ في أيِّ ناصية كما يترك الناس قطعةً من اللحم للقطط؟" فقلت: "لا، ... ليس هكذا . لكن ثمة أمور يجب على المرء أن ينفِّذها فوراً دون أن يفكر بها أو أن لا يفعلها أبداً".

فأجابت: "الحقيقة هي أنك تخشى أن أغيِّر رأيي وأن أعيده إلى البيت مرة أخرى... آه منكم يا أيها الرجال ... جميعكم جبناء". عندها أدركت أنه يجب ألا أعارضَها في هذه اللحظة نفسها ، وأجبتها مُهدِّئاً إياها وقلت: "لا تقلقي. فأنا أعرف حقيقة مشاعرك... لكن يجب أن تتذكَّري أنه مهما حدث له، فسيكون أفضلَ من أن يكبرَ في منزلنا، في غرفةٍ لا يوجد فيها مغسلةٌ أو مطبخٌ حيث ينتشرَ البقُّ في الشتاء، والذبابُ في الصيفِ"، لاذتْ بالصمت

ولم تُجِرْ جواباً.

أخذنا نحثُّ الخطا في شارع "ناسيونال" على غير هدى ورحنا نصعد باتجاه برج "نيرون". في الأسفل لاحظت شارعاً صغيراً ضيقاً مهجوراً تماماً، يلتف من الشارع الذي كنا فيه. وكانت توجد سيارة رمادية مركونة أمام مدخل أحد البيوت. لمعت في رأسي خاطرةٌ.

توجهت على الفور نحو السيارة، أمسكت مقبض الباب فانفتح على الفور، قلتُ لزوجتي: "هيَّا، بسرعةٍ، هذه فرصتنا، ضعيه في المقعد الخلفي". وفعلَتْ تماماً كما قلتُ لها ووضعَتْ الطفلَ على المقعد الخلفي للسيارة، وأغلقتِ الباب.

كان ذلك قد تمَّ بسرعةٍ فائقةٍ دون أن يلحظنا أحدٌ. ثم أمسكتُها من يدها ورحنا نهرول باتجاه ساحة "كونيال".

كانت الساحةُ خالية من الناس، وكان الظلام يكاد يُخيِّم عليها. كان هناك بضعةُ مصابيحَ مضيئةٍ أسفلَ البنايات الضخمة. وكانت أضواءُ "روما" تشعُّ وتتلألأ في الظلام المخيِّم في الأسفل وراء الحاجز الحديدي. اتَّجهَتْ زوجتي نحو البركة الواقعة تحت المسلَّة وجلسَتْ فوق أحد المقاعد. وفجأةً أخذت تجهش في البكاء. كانت مقوَّسة الظهر، وقد أدارت لي ظهرها.

قلت لها: "وماذا الآن؟؟" فقالت: "الآن؟!! لقد تركته... إني مشتاقةٌ إليه... أشعر كأنَّ شيئاً ينقصني هنا حيث اعتاد التعلُّق بصدري".

فقلتُ مجازفاً: "بالطبع ... لكنك سرعانَ ما ستعتادين ذلك". هزَّت كتفيها واستمرَّتْ في البكاء.

ثم، وعلى حين غِرَّةٍ جفَّت دموعُهَا كما يجفُّ المطر من

أرض الشارع بعد أن تهبَّ الرياح. وَثَبَتْ واقفةً، وأشارت إلى إحدى البنايات المطلّة على الساحة، وقالت وقد اعتراها الغضب: "سأذهبُ إلى هناك وسأطلب مقابلة الملك، وأروي له القصَّة بكاملها".

فصحتُ بها: "قِفِي" وأمسكتُهَا من يدها وقلتُ: "هل أنت مجنونة؟... ألا تعرفين أنه لم يعد هناك ملك؟" فقالت: "وماذا يهمني كلُّ ذلك؟ سأتكلّم مع أي إنسانٍ حلَّ مكانَه... لا بد أن يكونَ هناك أحدٌ ما".

وأخذت تجري نحو بابِ القصر الكبير. ولا يعلم سوى الله ما الجلبةُ التي كان من الممكن أن تحدثَهَا لو لم أقُلْ لها فجأة بدافعٍ من اليأس: "انظري... لقد كنت أفكّر بهذا الأمر... لنعُدْ إلى السيارة ولنستعدْ طفلنا ... أعني كي نحتفظ به لأنفسنا، إذ لا أهمية لعددهم لو زاد واحدٌ أو قلّ".

هذه الفكرةُ التي كانت حقاً جوهرَ المشكلةِ كلّها هيمنَتِ فوراً على فكرة التحدُّثِ إلى الملك وطغَتْ عليها فسألتني: "وهل لا يزال هناك؟". وانطلقَتْ بسرعة البرق نحو الشارع الضيِّق حيث كانت تجثُمُ السيارةُ الرماديةُ، وأجبتها وأنا أجري وراءها: "بالطبع، إذ لم يمضِ أكثر من خمس دقائقَ على ذلك".

كانت السيارةُ ما تزال واقفةً في مكانها. إلا أنه ما أن هَمَّتْ زوجتي بفتح باب السيارة حتى برزَ من مدخل البيت رجلٌ قصيرٌ، متوسطَ العمر، عليه سيماءُ النفوذِ والهيبةِ وصاح: "قفي... قفي... ماذا تفعلين بسيارتي؟"، فأجابته زوجتي: "أريدُ أن أستردَّ حاجتي" دون أن تعيرَهُ اهتماماً أو التفاتةً، وانحنَتْ داخلَ السيارةِ لتمسكَ بالصُّرَّةِ وترفعَها عن المقعد. إلاّ أنَّ الرجلَ تابع سؤاله: "ماذا لديكِ هناكَ؟ ماذا

تفعلينَ؟ إنها سيارتي... هل تفهمينَ؟ إنها سيارتي". كان عليكَ أن ترى زوجتي في تلك اللحظةِ. فقد ابتعدَتْ عن السيارةِ، واتَّجهَتْ نحوَه، وصاحَتْ في وجهه: "ومَنْ يأخذُ شيئاً منك؟ لا تقلقْ ... لا أحدَ يأخذُ شيئاً منكَ... أما سيارتكَ فإني أبصقُ عليها ... انظرْ"، وبالفعل، فقد بصقت على بابِ السيارة. أما الرجلُ فقد اعترتْهُ الحيرةُ وصاح:" ولكن تلكَ الصُّرَّةُ؟" فأجابت: "إنها ليست صُرَّةً إنها ابني ... انظرْ إذا أحببْتَ".

وكشفَتْ عن وجهِ الطفل، وأرتْهُ إياه ثم تابعت قائلةً: "أنت وزوجتُكَ لا يمكنكما إنجابَ طفلٍ جميلٍ مثلَهُ. حتى لو ولدت من جديد... ولا تحاول أن تدلَّ عليَّ وإلا ناديت الشرطةَ وسأقولُ لهم إنك حاولت سرقةَ طفلي". أمَّا الرجلُ المسكينُ الذي هدَّدَتْهُ ووبخَّتْهُ كثيراً، فقد وقفَ هناك فاغراً فاهُ وقد امتُقِعَ وجهُهُ، كأنَّهُ أُصيبَ بنوبةٍ. وأخيراً ابتعدَتْ عنه وانضمَّتْ إليَّ عند ناصيةِ الشارع.

اغتصاب

أفقتُ فجأة، وأحسست على الفور أنَّ الظلام الذي يكتنفني لم يكن مألوفاً لديَّ. ظلام يختلف عن الظلام الذي عَهِدْتُهُ عندما أستيقظ ليلاً، مع الفارق أنه تعذَّرَ عليَّ وصفُه. بيدَ أنه وبكل تأكيد كان ظلاماً مختلفا.

وعلى الفور اجتاحني شعورٌ بالانقباض، وأحسستُ أن قلبي يغوص داخل صدري. ما سببُ وجودي هنا، وكيف جئت إلى هذا المكان؟ لإيجاد جواب شافٍ عن هذه الأسئلة، مددْتُ يدي إلى وسَطِ السرير، لكنني سحبتها على الفور وقد تملكني الذعر: فقد لامسَتْ أصابعي ظهراً محدودباً وتحسست من وراء المنامة المجعدة فقراتٍ وعضلات. لم يكن ثمَّةَ شكٌّ من وجود رجل نائم إلى جانبي غير أني لا أعرف مَنْ هو.

بدأت أخيراً أعي حقيقة الأمر. فلسببٍ مازال مجهولاً، أُحضِرْتُ إلى هذا المكان بالرغم مني عن إرادتي. لا بد أنني قد اغتُصِبْتُ. إن وجودي مستلقية على السرير بجانب رجل أمضيت معه، في جميع الاحتمالات، طوال الليل، يبرر أسوأ الافتراضات.

نعم، لقد خطفني شخصان أو أكثر بينما كنت أسير في شارع غير مطروق كثيراً. حشروني في سيارة. قيدوني. كمموني ونقلوني ليلاً إلى هذا البيت، حيث خدروني بأحد أنواع

المخدرات. نزعوا عني ثيابي، وألقوْنِي على السرير ثم انتهكوا عذريتـــي. إنَّ محاولـــةَ اســـتعادةِ شريـــــطِ مــــا جـــرى أصابني بالصدمة. وفي مثل هذه الظروف لا يبدو لي ما لاقيتُ غريباً، فمن البدهيِّ أن تتعرَّضَ فتاةٌ شابةٌ جميلةٌ مثلـــي لـــهذا النوع من أعمال العنف. إنما الغرابة تكمن في عدم تعرُّضـــي لما تعرَّضتُ إليه.

لم يكن هذا وقتُ التفكـــير الفلســفي. إنمـــا المـــهم الآن الخروج من هذه الشقـــة بأيَّـــةِ وســيلةٍ كـــانت، وأن أعـــرف عنوانَهَا كي أتوجَّهَ إلى الشرطة لأبلــــغ عـــن خـــاطفيَّ. فقـــد أرْغِمْتُ على الابتعاد عـــن حيـــاتي المألوفـــة، عـــن الذيـــن أحبهم، وعن الأشياء التي أحبها وعما يُحيط بي فـــلا بـــد أن يدفع المذنبون ثمناً باهظاً، وباهظـــاً جـــداً. والحمـــد لله أنـــه توجد قوانينٌ وقضـــاءٌ وشَرطـــةٌ. إذ لا يجـــوز أن يتعـــرض إنسانٌ إلى أعمالٍ فظيعةٍ يعجَزُ اللســـانُ عـــن وصفـــها، دون أن ينال مرتكبوها عقاباً شديداً.

في الوقت الذي كانت فيه هـــذه الأفكـــارُ تجـــول فـــي خاطري، كنت أسحب ساقي اليمنى شيئاً فشيئاً وبـــهدوء مـــن بين أغطيةِ الفراش المتشابكة المتكومة. كنت حريصـــة علـــى أن أفعل ذلك بهدوء شديد كي لا ألمسَ الرجـــلَ الـــذي كـــان يغطُّ في النوم بجانبي. أحسســـت بـــالقَرَف عندمـــا لامسَـــتْ قدمي السجادةَ الممدودةَ بجـــانب الســـرير، التـــي لـــم تكـــن لتقلَّ غرابةً عـــن الظـــلام الـــذي حـــال دون رؤيتـــي لـــها. أسندت قدمي اليسرى على الأرض.

جلسْتُ لحظاتٍ قليلة على حافة الســـرير، ثـــم اســـتويت واقفةً بسرعةٍ مذهلةٍ. شعرت أني كنتُ أرتدي قميـــصَ نـــوم، إلاَّ أنَّ ذلك لـــم يمنحْنِـــي أيَّ دلالـــة: فقميـــص النـــوم هـــذا ليس قميصي، لأنه بدا لي غيرَ مـــألوفٍ. لقـــد كـــان غريبـــاً

بحيث أني خلعته بحركة مفاجئة عنيفة، فسحبتُهُ من فوق رأسي، وأصبحت عارية تماماً. تحسست طريقي نحو الباب، فتحتُه وغادرتُ الغرفة.

وجدت نفسي في ممر عادي جداً لا يثير الاهتمام. أربعة أبواب، وعلى الجانب الآخر يقبعُ بابُ الشقة. وعلى الحائطِ عُلّقَتْ بضعُ صور عادية جداً. مشجب نحاسي قصير. أربعةُ مصابيحَ باهتةُ اللون.

هذه الأشياء كلُّها أكَّدَتْ لديَّ الانطباع أني غريبةٌ هنا. إلاَّ أني شعرت بشكل مثير للأسى أني كنت قد رأيت هذه الأشياءَ من قبْل. إن المجرمين الذين يستأجرون شقة لتنفيذ أعمالهم الشنيعة لا يكلفون أنفسَهُم عناءَ تأثيثِها بهذا الشكل، لأنهم لا ينوون الإقامة فيها، وإشاعة جو مفعم بالدفء والراحة، بل لاستخدامها لارتكاب جرائمهم مع وجود درجة معينة من الأمان.

ولهذا السببِ لا يُبْدُونَ اهتماماً بفرشها بأثاث جيد. بل يشترون قطعاً عادية من الأثاث من أول مخزن يصادفونه. لقد كان العنف على الدوام عاراً وشيئاً غير متحضر بدءاً من إنسان الكهوف وانتهاءً بإنسان الشقق المجهولة مثلَ هذه الشقة.

كان الوقت مبكراً جداً، مع بدء انبلاج أولى تباشير الفجر. وكان ضوء باهت يتسرب إلى غرفة الجلوس. أجلت النظر في الغرفة ورحت أتفحصها وأنا أسير على رؤوس أصابعي. وقفت عند الباب واسترقت النظر إلى الغرفة. شاهدت أريكةً، وكرسيَّيْ فوتيل، ومنضدةً، وأربعة كراسٍ عادية، وخزانةً.

وكان كل شيء في الغرفة غريباً ومألوفاً في الوقت نفسه على نحوٍ يثير الفزع. ومرة أخرى عاودني

الشعور أني كنت قد رأيت هـــذه الأشيـــاءَ مـــن قبـــل حتـــى إنـــه ســبق لـــي أن عايشتُــها، لأنـــه ممـــا لا ريــب فيـــه، كانت موجودةً في هذه الغرفة الصغــيرة التـــي جــرت فيــها أكثرُ المراحل الإجرامية من اختطافي.

والدليل على ذلك، إن لــم تكــن ثمـــة أشيـــاءُ أخـــرى، بعـــضُ الكـــؤوس، وزجاجـــةُ مشـــروب كحولـــي، وبعـــضُ فنـــاجين القـــهوة، ونفاضـــات ممتلئـــةٌ بأعقـــاب الســـكائر. وعلى الأرض كـــانت تقبـــعُ علبـــةُ ســكائر فارغـــة. لقـــد تعرفـــت علـــى كـــل الأشيـــاء: فنـــاجين، كـــؤوس، قنينـــة، علبة، ونبذتها كلها في الوقت نفسه.

اقتربت من النافذة ورُحْتُ أتطلّعُ إلـــى الخـــارج، وأنـــا أضغط بصدري وبطني علـــى الزجـــاج. كـــان بوســعي أن أقسم: فالشقة تقع في شارع مشابـــه. أي شأنـــه شـــأن الشقـــةِ نفسِها يشبه مئة شارع، بـــل ألـــف شـــارع آخـــر. وكـــانت السياراتُ مصفوفةً بشكـــل متعـــرج مثـــل السلســـلة الفقريـــة للســـمكة، وتكـــاد تكـــون ملاصقـــة تحـــت عينـــي تمامـــاً، وكذلك على الطـــرف الآخـــر مـــن الشـــارع علـــى طـــول الرصيف المقابل.

كانت هناك الدكاكين ذات النوافذ المظلمة، التي ما زالت مغلقة. وفي الطابق الأرضي للبناية المواجهة كان هناك: دكانُ جزار، وصيدليةٌ، ومحلٌّ بيع ألبسة.

وكانت هناك الشرفات على واجهة المبنـــى. غـــير أنـــه لم يكن بوسعي أن أرى الســـماء، لأنـــي مـــن المحتمـــل أن أكون في الطابق الأول. كـــانت أضـــواء الشـــارع مـــازالتْ مُنارةً، تبـــدو صفـــراءَ فـــي هـــذا الجـــو الرمـــادي. وفـــي منتصف الشارع المعبَّد بالإسفلت، كان ثمـــة حفـــرة كبـــيرة، ورقعة عارية منخسِفة.

كانت أوصالي ترتعد من البرد. تركت النافذة واتجهت بصورة آلية إلى الأريكة. جلست فوقها وكوَّرْتُ جسمي. ألصقت ساقيَّ بصدري وضممت ذراعي حولهما، وأسندت وجهي على ركبتي. أدركت الآن أني لن أتمكن من الذهاب والتبليغ عن مختطفيَّ كما كنت أنوي.

وهذا ما جعلني أفقد إحساسي بهويتي على نحوٍ ما، بسبب نقلي إلى هذا البيت المجهول، في هذا الشارع المجهول البعيد عن الأشياء العادية المحيطة به. تساءلتُ: "من أنا؟" لم أعد أعرف. ربما كنت أنا نفسي كما يمكن أن أكون أيَّ إنسانٍ آخرَ.

والآن إذا كنت ما أزال أنا نفسي، فيجب علي أن أثور، ولكن من الناحية الأخرى، وكما بدا لي أني أفهم الآن، إذا كنت قد أصبحت أحداً آخر، فيمكنني القول إن الوضع الذي وجدت فيه نفسي، لم يعد وضعاً عادياً، ولا يحقُّ لي أن أثور عليه؟.

ومَنْ بوسعه أن يقول: إن مختطفيَّ لم يوفَّقوا في صياغة شخصية جديدة لي، كي تصبحَ أكثر انسجاماً لتنفيذ مآربهم؟.

ولكن ما تلك المآرب؟ لبثت ساكنة فوق الأريكة مدةً طويلة وأنا أحدِّق بعينين واسعتين، بالطاولة ذات الكؤوس، والمنافض، وفناجين القهوة.

وفجأة برقت في خاطري فكرةٌ: أنه يتعيَّنُ عليَّ أن أتركَ الكنبة على الفور، وأن أتدثَّر بالرَّوب، وأتَّجه إلى المطبخ وأحضِرَ صينيةً وأضعَ عليها الكؤوسَ والمنافضَ وفناجينَ القهوة وأغسلها جميعَها. ثم أفتح الثلاجة وأصب شيئاً من الحليب في قِدْرٍ. وأضعَهُ على الموقد. ثم أملأ ركوة القهوة وأنتظرها حتى تغلي.

كيف لي الآن أن أوفّقَ بين الأعمال المنزلية هذه والعنف الإجرامي الذي حدث لي الليلة الماضية؟ كان الأمر واضحاً: إن الخاطفين يهدفون إلى جعلي أداة طيّعة يستخدمونها بالطريقة التي يشاؤون، وليس فقط، بما يمكن أن نسمِّيَها "الطريقة الجسدية" في بيتي، في محيطي. كنت بالتأكيد إنساناً ذا اسم، لي وضعٌ عائليٌ ومهنةٌ.

أما هنا فلَم أعد شيئاً على الإطلاق، أو على الأصحِّ كنت ما كنت. لكن ماذا كنت؟ هنا تكمن المسألة. ولأتبيَّنَ ذلك، يجب علي أن أعرف ماذا يعرف الخاطفون عني. وكي أعرف ذلك، تعيَّن علي أن أُنَفِّذَ رغباتِهم، وشيئاً فشيئاً، من خلال ما أرغموني على القيام به، سأفهم في نهاية الأمر من أنا.

وفجأة، على حين غِرَّةٍ صدر صوت رجوليٌ أجشٌ فيه نبرة غضب وحَنَقٍ، ينادي اسمَ امرأةٍ من الغرفة الأخرى.

كان الاسم "لويزا". وبما أنه، ووفقَ كل المظاهر حولي، لم يكن ثمَّة أحدٌ في الشقة سوانا. أنا والرجل الذي كان ينام بجانبي.

كان عليَّ أن أستنتج أنَّ الرجل يناديني، وإني أنا "لويزا". هكذا إذاً حُلَّتْ النقطة الأولى: فعند مختطفيَّ كنتُ أُدْعَى "لويزا".

"لويزا" هذه طُلِبَ منها، بعد أن تبيَّنَتْ الوقت من النهار والحالة التي هي عليها، أن تعود إلى غرفة النوم تفتح النوافذ، وتقول : "ما أجملَ هذا اليوم!!" (أو: هو غائم) ثم تدلف إلى المطبخ، وتشغل نفسها بإعداد الفطور.

تماماً كما كنت أتوقع، وأنتظر تماماً كما كان أمراً محتوماً. هكذا إذاً، فقد تُكْشَفُ هويتي الجديدة شيئاً فشيئاً. لقد فقدتُ الشخصية القديمة، ويجب علي أن لا أعثرَ عليها ثانية.

الجمع والمفرد

إني امـــرأةٌ جـــادَّةٌ، أحـــبُّ الصمـــتَ والإصغـــاءَ، ولا أحبُّ الإفصاحَ عن الأفكار التي تجـــول فـــي خـــاطري، بـــل أرغبُ في الاحتفاظ بها لنفسي. ومن الأمـــور التـــي تجعـــل ذلك أمراً ســـهلاً وجـــهي المســـتديرُ الباســـمُ الجميـــلُ. إنـــه باختصار أشبه بوجه دمية.

بالفعل ألا يقـــول النـــاس فـــي بعـــض الأحيـــان عـــن المرأة التي لا تفصـــح عـــن آرائـــها ومشاعرهـــا، إنَّ لـــها وجهاً كوجه الدمية؟؟.

أما زوجي، فإنه لحسن الحـــظ، يحـــب التكلـــم بنفـــس القدر الذي أحب فيه الإصغاء. وهو من ذلـــك النـــوع الـــذي يحب التفكير، إلا أنـــه لا يحـــب الكتابـــة، لأن الكتابـــة فـــي نظره تعمل على وقـــف نشاطـــه العقلـــي الـــذي لا يتوقـــف عن العمل.

واســـمحوا لـــي هنـــاك أن أوضـــح لكـــم أســـلوبه في التفكير: إذ ما أن تتلقى تلك الآلة الصغـــيرة الكامنـــة فـــي رأسه أي حقيقة أو شيء واقعـــي أو مـــادي ملمـــوس، حتـــى تتحوّلَ على الفور إلى فكرة مجردة وعامـــة. بمعنـــى آخـــر، تتجلى تلك الحقيقة أو الشيء المـــادي الملمـــوس ـ وكيـــف يمكن أن يتم ذلـــك بغـــير هـــذه الطريقـــة؟ ـ فـــي صيغـــة المفرد. وهـــو عندمـــا يتكلـــم عنـــها يتحـــدث عنـــها دائمـــاً بصيغة الجمع. وعلى الفـــور تفقـــد تلـــك الحقيقـــة، أو ذلـــك

الأمر الواقعي الملموس صفـــة الماديـــة والواقعيـــة لتنقلـــبَ إلى نقيضِهَا.

فـــهل مـــن شـــيء مثـــلاً، أجمـــل، فـــي هذه الأيام من مشـــهد قـــوس قـــزح الـــذي يتبـــدَّى بألوانـــه القزحية فوق الطريق المؤدِّي إلى الريـــف، عندمـــا يخـــترقُ شُعاعُ الشمس الغيومَ الرمادية المتنـــاثرة فـــي الســـماء فـــوق الحقـــولِ الخضـــراء المتراميـــةِ الأطـــراف فيمـــا تـــــهطلُ الأمطارُ بغـــزارةٍ وتتســـاقطُ قطـــراتُ المـــاء أمـــام ضـــوء السيارة وعلى أغصان الأشجار فتبدو متلألئةً، وهـــي تتـــهمر فوق زجاج السيارة؟ إلا أنني مـــا أن ألفـــت انتبـــاه زوجـــي إلى قوس قزح الرائع الجمال حتـــى يصبـــح عنـــده مجـــرَّد كلماتٍ. كلمات ولا شيء سوى كلمات.

في أحد الأيام، ذهب زوجـــي إلـــى عملـــه كالمعتـــاد. ولأنه كان يحب التفكير، فقد كان عمله فكرياً. إذ كـــان يعمـــل في إحدى وكالات الدعايـــة والإعـــلان. وعلـــى نحـــوٍ غـــير مألوف، عاد إلى البيت ولم يكن قـــد مضـــى علـــى خروجـــه ساعة واحدة. وكنت قد شرعت في عملي (فقد كنـــت أترجـــم من اللغة الألمانية). وعندما رأيته يدخل متســـلّلاً وقـــد بـــدت على وجهه أمـــاراتُ القلـــق، أدرت كرســـيَّ نصـــفَ دورةٍ، وسألته عما حدث.

ولمعلوماتكم فـــإن زوجـــي ضئيـــل الجســـم، ورأســـه جميل أشبه برأس "كوندوتيريه" النهضة: أنف كبير مســـتقيم، فم مرتفع وعينان غائرتان. إنـــه قنـــاع يشـــي بالحيويـــة، إلا أنه، كما قلت، يخبئ تلك الآلة الصغيرة داخل رأســـه ليحـــوّل من خلالها المفرد إلى الجمع.

وفجأة اعترتني دهشةٌ كبيرة لأنه لم يرد علـــى ســـؤالي على الفور كعادته مع شيء من التعميم المملّ. وخُيِّـــلَ إلـــيَّ

أن الشيء الذي أثار انزعاجه لا بد أن يكون أمراً شخصياً جداً، لذلك وجد صعوبة بالغة في تحويله إلى شيءٍ مجرَّدٍ... ولبرهة، وفيما كنت أرمقه وهو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً بصمت، راودني أملٌ لأول مرة منذ أصبحنا نعيش تحت سقف واحد، بأنه سيقول لي أخيراً ما حدث له بدقة ويكشف عن فرديته وصفاته الأصيلة.

انتظرته طويلاً وأنا واجمة، ولكني، بعد أن وجدت أنه لم يَنْبَسْ بكلمةٍ، نهضت عن الكرسي الدوار، واتجهت صوب الكنبة وجلست عليها. قلتُ لنفسي: "لا يعلم ما حدث إلا الله". وحَدَانِي أملٌ أنه سيقصُّ عليَّ ما حدث له بصيغة المفرد، ولكنه إذا ما بدأ يروي لي قصته بصيغة الجمع هذه المرة، فلا بد أني سأنفجر.

خلال ذلك، فيما كانت هذه الأفكار تجول في خاطري، رحت أتابعه بعينيَّ وهو يذرع الغرفة، وقد ارتسمت على وجهي تعابيرُ الدميةِ المعتادة.

وفجأة توقَّف أمامي وراح يقول: "من وجهة النظر العملية، فإن الأعمال ليست سوى فرضيات الوجود، وهي تتطلب أناساً آخرين لتوكيدها. وفي المجتمعات المتنافسة، تكون هذه الفرضيات دائماً عرضة لخطر أن يقومَ بنقضِها..." .

هانحن عدنا ثانية إلى الجمع والمجرد. اجتاحني شعور مفاجئ بالسُّخْطِ والنفور، بحيث إني لم أعدْ أكترثُ لمعرفة حقيقة ما حدث له. فتحت فمي ورحت أصرخُ بصوتٍ ساخر: "بلا بلا بلا...". كنت قد قلت إن رأسَ زوجي يشبه زعماء "كوندويتروي" في عصر النهضة من

طراز "كوليوني". تصور "كوليوني" بفمِهِ الفاغر من الدهشة. سألني: "ماذا دهاك؟".

قلت له: "الأمرُ وما فيه هو أني لا أعرف ما حدثَ لك، ولكن ما أن بدأت بتنظيراتِكَ العامَّةِ المعهودةِ، حتى لم أعد أعبأ بمعرفة أي شيء".

ــ ولماذا تريدين أن تعرفي؟

ــ لأنك لا تقل لي أبداً الشيء نفسه.

ــ شيء ماذا؟

ــ الشيء.

ــ ماذا تقصدين؟

ــ أعني "الخاص". إذ سرعان ما تدخل في المجردات. العموميات...

ــ هذا أسلوبي في معرفة حقيقة ما يحدث لي، ما وراء الأشياء التي تحدث. يجب على المرء أن يكشف القوانين التي تُسيِّرها.

ــ نعم، ولكني أصبحت منذ زمن أشك أنَّك تُلقِّقُ القوانين وِفْقَ مصلحتِكَ. فإذا كانت تسير معك على ما يرام، تكون عندئذٍ على ما يرام عند العالم بأسره. أما إذا لم تَسِرِ الأمور معك كما تشتهي، فإنها تصبح سيئة عند العالم برمَّتِهِ، فمن الأفضل التحدُّثُ عن الأشياءِ بصراحةٍ من دون مواربة، أو من دون استخلاص القوانين أو تقييمها. فمثلاً، من الطريقة التي بدأت فيها حديثك، خمَّنْتُ أن أمراً ليس على ما يرام قد حدث لك هذا الصباح، وبالتحديد في مجال عملك. فلعلك خسرت عقداً للدعاية؟ لكن لا تعبأ بذلك: فلو سار الأمر سيراً حسناً على نحو ما ترغب، لكنت قد قلت العكس تماماً.

ــ وماذا برأيكِ يجب أن أفعل؟

ـ يجبُ عليكَ أن تكونَ مدركاً وواعياً للواقع، أن تُدركَ الأشياءَ وفق مصالحك كما يفعل الجميع. يجب عليك أن تضع العمومياتِ جانباً وأن تتحدث عن الشيء نفسه.

ـ حسب كلامك، يجب أن أصبح معمعياً.

ـ بصورةٍ ما، نعم.

لا بد أن يكون قد حدث له شيءٌ خطير، ذلك لأنَّ الآلة الصغيرة الكامنة في رأسه أصبحت فجأة مشوَّشة. إذ لم يشرع في إلقاء أية نظرية عن النساء (كوني امرأةً) أو عن واجبات الزوجة (كوني زوجةً) بل، انحنى إلى الأمام نحوي، والحَنَقُ يكاد يمزِّقه وصرخ في وجهي: "لا، أسمح لك بالتحدُّث إليَّ بهذه اللهجة".

وأخيراً حصلت على شيء مباشِرٍ ومُحدَّدٍ وملموس. وعَزَمْتُ على حثِّه كي يمضي قُدْماً على هذا النحو، فقلت له ببرود: "سأقول كلَّ ما يَردُ إلى خاطري. أنت معمعيٌّ، بل إنك ثرثار ومهذار".

فاندفع نحوي فجأة. لقد كانت غرفة الجلوس هي الشاهد الوحيد على خُطبه الرنانة المستفيضة، وعلى إصغائي التام له.

وفجأة رأيت رجلاً ضئيلاً، ذا رأس أشبه "بكوليوني" وهو يَثِبُ على زوجته الدمية محاولاً ضربها. لقد نجح في ذلك، ولكن دون أن يَبْذُلَ جهداً.

ولوهلةٍ انتابني شعورٌ بالراحة: فاللّكمة هي بالرغمِ من كل شيء لكمة: شيءٌ محدَّدٌ ملموس. إلا أنه تملَّكنِي شعورٌ بالغضب عقب ذلك تماماً. وَثَبْتُ واقفة وجريت إلى غرفةِ نومي وصرخت: "لقد انتهى كلُّ شيء بيننا".

فتحْتُ حقيبتي ورحْتُ أرمي فيها أيَّ شيءٍ

يقع تحت يـــدي. ثـــم دَلَـــفَ إلـــى الغرفـــة وارتمـــى عنـــد قدميَّ، وطوّقني حـــول الركبتيـــن، فســـقطت ظـــهراً علـــى السرير. وبصوتٍ مشحـــونٍ بالأســـى الحقيقـــيٍّ قـــال: "لقـــد طُرِدْتُ من العمل منذ ســـاعةٍ. والآن أصبحـــت دون عمـــل، وأنت تقرِّرينَ في هذه اللحظة نفسها أن تتركيني".

وهكذا تمكّنتُ منه في النهاية. لقد توقّفتُ أخيراً تلك الآلة الكامنة في رأسه أمام ثورتي، وأخذ يحكي لي الواقـــعَ تمامـــاً ولم يحوِّلْهُ إلى هُراءٍ أيديولوجي. قلت لـــه: " هكـــذا إذن فقـــد طُرِدْتَ من العمل؟".

ـــ نعم

ـــ كيف؟

ـــ طلبني المدير إلى مكتبه وأعلمني أنه أقـــالني بســـبب عدم كفاءتي.

ـــ هذا واقعٌ دقيقٌ. على كـــلٍّ لا تبـــكِ، فســـتجدُ عمـــلاً آخرَ ولا تقلق فلن أتركك. إنـــك تعـــرف مـــا ســـنفعله مـــن الآن وصاعداً؟.

ـــ ماذا؟

ـــ كلما شعرت إنك ستقول نظرية عامة أيّاً كانت سأقول لك بهدوء ولطف شديدين: بلا بلا بلا...

نَشَقَ بصوتٍ عالٍ، إلا أنه شعرَ بالارتياح وتوقّفَ عـــن البكاء. سألته: "كيف يبدو رئيسك؟".

ـــ إنسانٌ عاديٌّ جداً.

ـــ أنا واثقة من أنّهُ ليس رجلاً عادياً... يجب أن تكُون له شخصية معينة.

ـــ نعم، توجد فوق فمِهِ شامة بل ثؤلـــول فـــي الواقـــع. من الواضح أنه بينمـــا كـــان يحلـــقُ ذقنَـــه هـــذا الصبـــاح، جرحَها. وكـــان يلعقـــها بطـــرفِ لســـانِهِ باســـتمرارٍ دونَ أنْ

يأخذَ أيَّ اعتبارٍ لوجودي.

ـ هذا شيءٌ غيرُ لطيفٍ.

ـ إن الشاماتِ إذا ما جُرِحَتْ تكونُ على درجةٍ كبيرةٍ من الخطورة، فهي تحدثُ السرطانُ... لذا يجب على المرء أن يكونَ حذراً وهو يحلقُ لأن...

ـ بلا بلا بلا...

لا تسبر الأغوار كثيراً

كان بوسع "أجينز" أن توجِّهَ لي تنبيهاً ما بـــدلاً مـــن أن تتركني هكذا، حتى دون أن تقـــول لـــي إنـــها ذاهبـــة إلـــى الجحيم.إني لا أدَّعي أني زوجٌ مثاليٌ خالٍ من العيوب. إلا أنها لو كانت قد أخبرتني عن سبب شكواها، لكنا جلســـنا وبحثنـــا الأمر معاً. لكن، لا.. لا.. أبداً، فخلال ســـنتين مـــن الحيـــاة الزوجية لم تتذمَّر بكلمة واحدة. ولكن أن تنتهزَ فرصة غيـــابي في صبيحة أحد الأيام وتتسلَّلَ هاربةً من البيت كما تتســـلَّلُ أيُّ خادمة بعد أن تجد مكاناً أفضـــلَ للخدمـــة شـــيءٌ لا يحتمـــل. وعلى الرغم من مضيٍّ ستة أشهرٍ على مغادرتها المـــنزل، لا زلت لا أفهم السبب الذي دعاها إلى هجري.

في صباح ذلك اليوم، بعد أن قمـــت بشـــراءِ الحاجـــاتِ المنزليةِ من السوق المحلية الصغيرة (فأنا أحـــب أن أشـــتري الأشياءَ بنفسي: إذ أعرفُ الأسعارَ جيداً، وأعرف مـــا أريـــد، وأحبُّ المســـاومة والمجادلـــة، ومعاينـــة الأشيـــاء التـــي أودُّ شراءها؛ فأنا من النوع الذي يريد أن يعرفَ ما الحيوانُ الـــذي سأتناول منه قطعة اللحم، ومن أيِّ سلة خرجت تفاحتي)، وكنت قد عُدْتُ مرةً أخرى إلى السوق لشراء ياردة ونصف ياردة من الأهداب لأخيطها على الستارة في غرفة الطعام. ولأني لم أكن أرغب في إنفاق مالٍ كثيرٍ جُبتُ أماكنَ عديـــدةً قبـــل أن أجـــدَ ضالَّتي أخيراً في محلٍّ صغيرٍ يقع في شارع ديل أوملتا. كانت الساعةُ تقاربُ الحادية عشرةَ والثلث عندما قفلت عـــائداً إلـــى

البيت. دلفت إلى غرفةِ الطعام كي أوازن بين لـــون الأهــداب ولون الستارة. وعلى الفور، لاحظت على الطاولة محبرةً وقلماً ورسالة. إلا أن الشيءَ الذي لفت انتباهي من بين كـــل ذلـــك، وجود بقعة حبر على مفرش الطاولة. قلـــت لنفســـي: "بحـــق السماء، لماذا ينبغي أن تكون خرقاءَ إلى هذه الدرجة؟ .. فقـــد لوثت مفرش الطاولة ببقعة حبر".

رفعت المحبرة والقلم والرســالة، وحملــت المفــرش و توجهت إلى المطبخ حيث أخذت أزيلُ البقعة بعــد أن فركتـــها بقوةٍ بقطعة ليمونة. ثم عدت إلـــى غرفـــة الطعـــام، وأعـــدت المفرشَ إلى مكانه، عندها فقط تذكَّرت الرسالة.. كانت موجَّهةً إليَّ: "ألفريدو". فتحتُها ورحت أقرؤها: "لقـــد نظَّفْــتُ البيـــتَ. تستطيع أن تُعِدَّ طعام الغداء بنفسك، فأنت معتاد على ذلك. إلى اللقاء. سأذهب إلى بيت أمي". "أجينز".

للوهلة الأولى، لم أفهم شيئاً. لكني أعدت قراءة الرســـالة حتى أدركت فحواها تماماً. ها قد ذهبت أجينز.. لقد تركتنـــي بعد سنتين من الحياة الزوجيـــة. وحســـب عــــادتي، وضعـــت الرسالة في درج الخزانة، حيث أحتفـــظُ بجميـــع الإيصـــالات والرسائل. جلست على كرسيٍّ إزاءَ النافذة ولم أكـــن أعـــرف بماذا سأفكر؟. إذ لم أكن مهيَّأً لذلك، ولـــم أكـــد أصَـــدِّقُ مـــا حدث. عندما جلست وأخذت أفكر بالأمر، مطرقاً رأسي وأنـــا أحدق بالأرض، رأيت ريشةً بيضـــاءَ صغـــيرة لا بـــدَّ أنـــها سقطت من الفرشاة ذات الريش، بينما كانت "أجيـــنز" تنفـــض الغبار. أمسكت الريشة. فتحت النافذة ورميتـــها خارجـــاً. ثـــم تناولت قبعتي وخرجت من البيت.

مشيت ــ وأنا أقفز حَسْبَ عادةٍ ذميمة لي بين كل حجرة وأخرى ــ وأنا أتساءل، ماذا يمكن أن أكون قد فعلت "لأجينز" حتى تتركني بهذه الطريقة الفظَّة الســـمجة، وكأنـــها تتقصَّـــد

إهانتي، في المقام الأول، تساءلت في قرارة نفسي: هل يمكن "لأجينز" أن تدَّعي أني لم أكن مخلصاً لها بأي شكل من الأشكال حتى لو كان تافهاً. إلا أني أجبتُ على الفور: "لا، أبداً. إذ لم أكن أشعر أبداً برغبةٍ قويةٍ نحو النساء. فهن لا يفهمنني، وأنا لا أفهمهنَّ. وبوسعي القول إنه منذ اليوم الأول من زواجنا، توقَّف عندي وجودهنَّ تماماً، حتى إن "أجينز" كانت تثيرُ أعصابي عندما كانت تسألني من حين إلى آخرَ: "ماذا ستفعل إذا أحْبَبْتَ امرأةً أخرى؟" وكنت أجيبُها: "إن هذا من ضرب المستحيل. فأنا أحبُّك، وسيبقى حبي لك ما حَيِيْتُ". الآن، وبعد أن قلَّبت ذلك في فكري مرة أخرى بإمعانٍ، تذكَّرت أن كلمة "ما حييت" لم تكن تسعدُها، بل على العكس، كانت الكآبةُ تعلو وجهها وتلوذُ بالصمت. وعندما انتقلتُ إلى مجموعةٍ مختلفةٍ تماماً من الأفكار، انتابني قلقٌ: فهل يمكن أن تكون "أجينز" قد تركتني لأسبابٍ تتعلَّق بالمال؟ أو بسبب معاملتي إياها بشكل عام؟. إلا أنني وجدت أن ضميري مرتاحٌ لهذا الأمر أيضاً. صحيحٌ أني لم أكن أعطيها مالاً إلا في حالاتٍ خاصَّةٍ، فما حاجتها إلى المال؟. لقد كنت أرافقها دوماً وكنت مستعداً دائماً للدفع. أما طريقةُ معاملتها، فالله يعلم كم كنت أعاملها بلطفٍ، وبإمكانكم أنتم الحكمُ على ذلك: فقد كنا نرتادُ السينما مرتين في الأسبوع، والمقهى مرتين في الأسبوع، ولم يكن يهمُّ إن هي تناولت مثلجاتٍ أو فنجانَ قهوة فقط، وكنت أشتري لها مجلَّتين مصوَّرتين كل شهر، وجريدةً يومياً. وفي الشتاءِ كنا نذهب إلى الأوبرا. أما في الصيفِ، فكنا نقضي العطلة في منزل والدي في "مارينو"، حيث كانت ضروب المتع والتسلية كثيرة ومتعددة. أما فيما يتعلَّق بالثياب، فلا يحقُّ "لأجينز" أن تتذمَّرَ على الإطلاق. فكلما كانت تحتاج إلى شيء، سواء كانت حمَّالة صدرٍ أو جوربٍ أو منديلٍ، كنتُ

دائماً على أهْبَةِ الاستعداد. فقد كنت أصطحبها إلى المتاجر، وأساعدها في اختيار الأشياء وأدفع ثمنها دون تردد. وينسحب ذلك على الخيَّاطةِ وصانعة القبّعات. ولم يحدث أن قالت لي مرة: "أحتاج إلى فستانٍ أو قبّعةٍ" إلا جاوبتها: "هيَّا. سأذهب معك". علاوة على ذلك، يجب أن أقرَّ أن "أجينز" لم تكن كثيرةَ الطلبات. فبعد السنة الأولى من زواجنا، كفَّت عن شراء ثيابٍ جديدةٍ. وكنت أنا الذي يذكّرها أنها تحتاج إلى كذا وكذا من الألبسة. إلا أنها كانت تقول إنه لا زالت عندها ألبسة من السنة الماضية، وأنها لا ترغب بشراء ألبسة جديدة، حتى أصبحت أفكر في نهاية الأمر، أنها تختلف في هذا الأمر عن النساء الأخريات، وأنها لم تكن ترغب كثيراً بارتداء ثيابٍ أنيقةٍ.

هكذا إذاً، يتبيَّن لي أن الأمر لم يكن يتعلق بالنواحي العاطفيةِ أو الماليةِ. ويبقى أمامي ذلك الشيء الذي يطلق عليه المحامون: "عدم التوافق في المزاج"، وطرحت على نفسي السؤالَ التالي: "ماذا يمكن أن يكونَ هناك من أمورٍ تدعو إلى عدمِ التوافق في المزاج، في حين لم يحدث بيننا خلال سنتين أيَّ نزاعٍ أو شجارٍ. فلم نكن يفارق أحدُنا الآخرَ. ولو كان ثمة شيءٌ من عدم التوافق، لكان قد ظهر. غير أن "أجينز" لم تكن تعارضني أبداً، بل يمكن القولُ إنها كانت صامتةً على الدوام، ولم تكن تتكلّم أبداً. فخلال تلك الأمسياتِ التي كنا نقضيها في المقهى، أو في البيت، لم تكن تفتح فمها، بل كنت أنا الذي يتحدث طوال الوقت. وأنا لا أنكر ذلك، فأنا أحبُّ أن أتكلّمَ، وأحبُّ أن أسمعَ نفسي، ولا سيما إذا كنت مع إنسانٍ توجد بيننا وشائجُ المودَّةِ. إن طريقتي في الحديث هادئةٌ، متسقةٌ، معقولةٌ، متدفقةٌ، ولا يوجد فيها ارتفاعات أو انخفاضات. وعندما أتطرّق إلى موضوعٍ ما، كنت أقسمه إلى

أجزاء من الأعلى إلى الأسفل، وأحلّله من جميع جوانبه. والموضوعات المحبَّبَةُ إليَّ موضوعاتٌ منزلية: فأنا أحبُّ التحدُّثَ عن ثمن الأشياء، وترتيب الأثاث، والطهي والتدفئة، وبشكل عام عن أي شيء تافه. وفي الواقع، لم أكن أمل أبداً من التحدث عن ثمن الأشياء. كما أجد اهتماماً كبيراً فيها، بحيث كنت أجد نفسي في معظم الأحيان، وقد بدأت مرَّةً أخرى نفس الحديث. ودعونا نكون منصفين. فهذه بالتأكيد هي الموضوعات المناسبة للتحدُّثِ مع امرأة. وإلا عن ماذا سيتحدث المرء؟ على كل حال، اعتادت "أجينز" أن تنصتَ إليَّ بآذانٍ صاغيةٍ ــ هذا ما كان يبدو لي على الأقل ــ في مرة واحدة فقط فيما كنتُ أشرحُ لها طريقة عمل سخَّانِ الماء، غطَّت في النوم. أيقظتُها وسألتُها: "لماذا، هل تشعرينَ بالملل؟" فأجابت على الفور: "لا.. لا.. فأنا متعبة، ولم أنم جيداً الليلة الماضية".

في العادةِ يمضي الأزواجُ أوقاتهم في مكاتبهم أو متاجرهِم، أو لا يكون لهم شيئاً ألبتَّة فيخرجون مع أصدقائهم لتمضية الوقت.. أما أنا، فإن مكتبي ومتجري وأصدقائي ــ هي "أجينز". إذ لم أكن أتركُها وحدها لحظةً واحدةً، بل كنت أبقى إلى جانبها دائماً ــ ولعلَّ الدهشة ستنتابك ــ حتى وهي تطبخ. إذ توجد لديَّ رغبةٌ عارمةٌ في الطهي. ففي كل يوم، كنت أضع مئزراً و أساعدُ "أجينز" في الطبخ. وكنت أقوم بمختلف الأعمال: فقد كنت أقشِّرُ البطاطا، وأمشِّطُ الفاصولياء، وأحضِّرُ المحشي، وأراقب القدورَ. لقد كنت أقدِّم لها مساعدةً ممتازةً بحيث كانت تقول لي غالباً: "انظر، إنك تفعل ذلك بشكلٍ جيدٍ. إن رأسي يؤلمني. سوف أذهب وأستلقي قليلاً"، فأطهو الطعام بنفسي. كما كنت أجرِّب أطباقاً جديدة بمساعدة كتاب دليل الطبخ. ومن المؤسف حقاً أن

"أجينز" لم تكن نَهِمَة. فقد فقدت شهيتها مؤخراً، فبــدَتْ غــيرَ راغبةٍ في الطعام. ومرة قــالت لــي ــ طبعــاً علــى ســبيل المزاح ــ : "كان من المفروض أن تولد امرأةً وليس رجـــلاً. إنك حقاً امرأة، ربة بيت حقيقية". ويجـــب أن أعــترف أنــه يوجد شيءٌ من الحقيقة في ملاحظتها تلــك، فبالإضافــة إلــى الطبخ، كنت أحبُّ الغسيلَ وكيَّ الثياب والحياكة، بل حتى كنت أقوم في أوقات الفراغ بخياطة حوافِّ المناديل، كما قلت: لــم أكن أتركها وحدها أبداً، حتى عندما كانت تأتي إحدى صديقاتها أو أمُّها لزيارتها. بل حتى عندما أدْخَلْتُ في رأسِها، لســببٍ أو لآخرَ، فكرة اتِّباع دروسٍ في اللغة الإنكليزية، بَذَلْــتُ جــهوداً كبيرة في تعلُّم تلك اللغةِ البالغةِ الصعوبة من أجـــل أن أبقــى قربها. لقد كنتُ شديدَ الصِّلة بها، حتى إني كنت أشعر بتفاهتي في بعض الأحيان، كما حدث في تلك المرة، عندما لم أفْقَهْ شيئاً مما قالته بصوتٍ خفيضٍ، عندما كنَّا في أحد المقاهي، فتبعتــها إلى المغاسل فأوقفتني المشرفة وقالت لي: "إن هــذه المغاســل مخصصة للنساء فقط ولا يمكنك الدخول". آه ..نعم، لا يمكــن إيجاد زوج مثلي بسهولة. وفي معظم الأحيان، كانت تقول لــي: "سأذهب إلى ذاك المكان للقاء فلانٍ من الناس وأظــنُّ أنــه لا يهمك أمرُ لقائه أبداً"، فأجيبها:" سآتي معك أيضاً، ففي جميــع الأحوال ليس لديَّ شيءٌ أفعله"، فتقول:" تعال، ولكن أحــذِّرُكَ أنك ستشعر بالملل". لكني لم أشعر قط بالملل. ثم كنت أقول لها بعد ذلك:"هل رأيت؟ فأنا لم أشعر بــالملل". باختصــار، كنــا زوجين لصيقين لا ينفصلان أبداً.

بعد أن قلَّبْتُ هذه الأمورَ في رأسي وأنا أتســاءل عبثــاً طوال الوقت عن السبب الذي دعا "أجينز" إلى هجري، وصلتُ إلى دكان والدي. فقد كان والدي يبيع أشيــاءَ مقدَّســة، ويقــع متجره قرب ساحة منيرفا. إذ ما يزال أبي شاباً، أسودَ الشعــر

أجعدَه، وله شاربٌ أسودُ ترتسم تحته ابتسامةٌ لم أفهم مغزاهـا طوال عمري. ربما لأنه اعتاد على التعـامل مـع القساوسـةِ والأتقياء. فهو في غاية اللطف، هادئٌ ومتزنٌ. أما أمي، التـي كانت تعرفه جيداً، فكانت تقول: "إنَّ أعصابَه مخبَّأةٌ في داخله".

مررت عبر واجهـة المحـل الزجاجيـة الممتلئـة بأرديـة القساوسة والأوعية المقدسة، وتوجهت مباشرةً إلى غرفة مكتب أبي التي كانت تقع خلفَ المحـل. وكعادتـه، كـان يجـري حساباتِهِ، وهو يعضُّ شاربه واجماً. قلـتُ لـه وأنـا منقطـعُ الأنفاس: "أبي..لقد هجرتني "أجينز"". رمقني بعينيه وبدا لـي أنه يبتسمُ أسفلَ شاربيه. لكن لعلَّ ذلك كان مجرد انطباع. قال: "أنا آسف ..آسف جداً.. ولكن كيف حدث ذلك؟".

حكيتُ له القصة بكاملها، وقلت له أخيراً: "طبعـاً، إنـي منزعجٌ جداً لما حَدَثَ.. إلا أنَّ الشيءَ الذي أريدُ معرفتَهُ أكـثرَ من أي شيءٍ آخرَ هو السببُ الذي دعاها إلى تركي؟؟".

سألني والحيرة بادية على وجهه: "ألم تفهم السبب؟".

ــ لا

لاذ بالصمت لحظة ثم قال وقد أطلق تنهيدة: ""ألفريـدو" أنا آسف، لكني لا أعرف ماذا أقول لـك..إنـك ابنـي، وأنـا أساعدُكَ وأحبُّكَ كثيراً.. أما أمرُ زوجتك فهذا شأنُكَ أنت".

ــ نعم ولكن لماذا تركتني؟.

هزَّ رأسه وقال: "لو كنتُ مكانَكَ لما نبشت كثيراً في هذا الأمر.. لا تسبرِ الأغوارَ كثيراً. دع الأمرَ وشأنه.. فماذا يهمك إذا عرفت السبب؟؟".

ــ يهمني كثيراً.. أكثرُ من أيِّ شيءٍ آخرَ.

في تلك اللحظة دخل قسيسانِ إلى المحلِّ، فنهض والـدي واتَّجه نحوهما وقال لي: "عُدْ فـي وقـتٍ آخـرَ. سـنتحدث بعدئذ..فأنا مشغولٌ الآنَ". وأدركْتُ عندها أنـي لا أتوقَّـع أن

أحصلَ منه على أكثرَ من ذلك وخرجـت. لـم يكـن مـنزل والدة "أجينز" بعيداً، فهو يقعُ فـي شـارع "فيـتربو". قلـت لنفسي: "إن الإنسانَ الوحيدَ الذي يمكنه أن يُميطَ اللثـامَ عـن سرٍّ هجرها لي هو "أجينز" نفسُها". لذلك توجَّهت إلـى بيـتِ والدتِها على الفور. تسلقت سـلالم العمـارة جريـاً. قرعـت البابَ، دُعِيْتُ إلى غرفةِ الجلوس. إلا أنه بدلاً مـن أن تـأتي "أجينز" جاءت أمُّها التي كانت تملكُ متجراً كذلك. لـم أكـن أحبُّها أو أتحمَّلها بشعرها الأسود المصبوغ، وخدَّيْها الورديين، ونظرتها وبسمتها الخبيثتيـن. كـانت ترتـدي مشلحـاً وقـد علّقتْ على صدرهـا وردةً. عندمـا رأتنـي قـالت بدماثـةٍ مصطنعةٍ: "اه.. "ألفريدو".. ماذا تفعل هنا؟".

ــ تعرفين سببَ مجيئي. لقد تركتني "أجينز".

قالت بهدوء: "نعم، فهي هنا. يا عزيزي ماذا يمكـن أن يُفعلَ حيَالَ ذلك؟ فتلك الأشياءُ يمكن أن تحدثَ".

ــ ماذا؟ هل هذا هو الـردُّ الوحيـدُ الـذي يمكنـكِ أن تقدميه لي؟.

رنت إليَّ بعينيها ثم سألتني: "هل أخبرتَ والدكَ بذلك؟".

ــ نعم أخبرته.

ــ وماذا قال؟.

ما علاقتها بحق السماء فيما قاله لي أبي؟ أجبتها بالرغم مني: "أنتِ تعرفين طبعَ أبي.. فهو يقول إنه من الأفضـل أن لا أسبرَ الأغوارَ كثيراً".

ــ إنه محق تماماً يا عزيزي. لا تسبر الأغوار كثيراً.

قلت محتداً: "لكن، حقاً، لماذا هجرتني؟ ماذا فعلت لـها؟ لماذا لا تقولين لي؟".

بينما كنت أتحدَّث وقد اجتاحني الغضبُ، وقعَتْ عينـاي على الطاولةِ المغطَّاةِ بمفرشٍ ذي قطعةٍ بيضاءَ مطرَّزةٍ، وُضِعَ

فوقها، في الوسط، مزهرية" ممتلئة بـالقرنفل الأحمـر. إلا أن القطعة المطرزةَ كانت منحرفة عن مكانها.. وبصـورةٍ آليـةٍ، دون أن أعيَ ما أقومُ بِهِ، وفيما راحت تنظـرُ إلـيَّ مبتسـمةً لم تجبني. رفعتُ المزهرية وركّـزتُ القطعـة فـي مكانِـهَا الصحيح. عندئذٍ قالت: "رائعٌ.. لقد أصبحت القطعةُ الآن فـي الوسطِ تماماً..لم ألاحظْ ذلك، أما أنتَ فقد لاحظْتَهَا على الفور.. رائع.. والآن من الأفضل أن تغادرَ يا عزيزي".

استوينا واقفَيْن في لحظةٍ واحدةٍ. أردت أن أسألَ إن كان بوسعي أن أرى "أجينز"، لكني أدركتُ أنَّ ذلك لم يكن مجدياً، كما كنتُ أخشى أن أفقِدَ أعصابي وأتصرَّفَ أو أقولَ شيئاً غير لائق إذا ما رأيتها. خرجْتُ من البيت ولـم أرَ زوجتـي منـذ ذلك الحين. لعلها ستعودُ يوماً، بعد أن تتأكّد أن الأزواجَ مـن أمثالي لا يتكررون في كل يوم. لكنها لن تطأ عتبةَ البيتِ إذا لم تشرحْ لي سببَ ذهابها.

امرأة مشهورة

كان كلُّ شيءٍ يسير على ما يرام. وقفتُ في المطار على مسافةٍ غير بعيدة من الطائرة، ورأيتُ المجموعةَ مقبلة نحوي. لم أرهم جيداً بسبب نور إفريقيا المبهر. فقد كان النورُ ساطعاً إلى درجة أن الإفريقيين بدوا لي وكأنهم فِيَلَة سوداءُ في مسودة فيلم.

أما الأوروبيون، فقد اختفوا بالفعل تحت وَهْج أشعَّةِ الشمس الرائعة. غير أنني تمكَّنت من تمييز الوزير الذي حيَّاني باسم دولتِه التي كنتُ أقوم بزيارتِهَا منذ زمنٍ وجيزٍ في رحلةٍ سياحيةٍ.. وكان ثمَّة ثلاثةُ مصورين، أو أربعة، واقفين، أو جاثين، وقد انهمكوا في التقاطِ صورٍ لي، فيما راح صحفيان، أو ثلاثة، يسجِّلون أجوبتي الهامة على أسئلةِ الوزير في دفاترهم الصغيرةِ.

ثم تقدَّمَتْ مني فتاةٌ إفريقيةٌ صغيرةٌ ترتدي زيّاً أبيضَ، وقدَّمَتْ لي باقة من الأزهار التي أخذت تذبل، وانحنت لي.

ورحت أصعد درجات سلم الطائرة ببطءٍ كي أتيحَ للمصورين فرصة التقاط بسمتي المشهورة.

إلا أنني عندما أصبحت داخل الطائرة، تلاشت ابتسامتي بسرعةٍ إلى درجة أن المضيفة، التي كانت تعرف جيداً

حقيقة الابتساماتِ الزائفةِ المتصنّعةِ، انتابها الذعــــر وســـألتني فيما إذا لم أكن على ما يرام.

هـــززتُ رأســـي وجلســـتُ فـــي المقعــد المخصّـــص لي، بينما أخــــذت الدمـــوعُ تنـــهمر مـــن عينـــيَّ بشكـــل لا إرادي، وبللـــت وجنتـــيَّ. لقـــد اجتـــاحني شعـــورٌ بالكآبـــة، وهو شعورٌ كان قد بـــدأ يعـــتريني منـــذ مـــا لا يقـــل عـــن سنتين تقريباً.

ولكنَّ هذا الإحســـاسَ بالكآبـــة يدفعنـــي إلـــى عـــرض مفاتني بشكـــلٍ أخـــرقَ يدعـــو للخجـــل. ولمحـــت بطـــرف عيني بنطالَ الرجلِ الأبيض الـــذي كـــان يجلـــسُ بجـــانبي. وكان هذا كافيـــاً لأن يجعلنـــي، وأنـــا أشـــدُّ حـــول وســـطي الحـــزامَ، أن أرفـــعَ قليـــلاً تنورتـــي القصـــيرةَ جـــداً، كـــي يتمكّنَ ذلك الرجل الذي أثـــار اهتمـــامي مـــن إلقـــاءِ نظـــرةٍ على ساقيَّ الجميلتين.

وكـــان ثمـــــة احتمـــــالٌ واحـــــدٌ مـــــن مليـــــون أن هذا الرجـــل لا يعـــرف مـــن أكـــون، واحتمـــالٌ واحـــدٌ من عشرةِ ملاييـــن أنـــي ســـأجده جذّابـــاً، غـــير أنـــي لـــم أشـــأ أن أجـــازفَ وأفقـــدَهُ. لـــهذا الســـببِ، بـــدأت أكشـــفُ عن ساقيَّ.

وإذا تبيَّنَ لي مـــــن الناحيـــة الأخـــرى، أنـــه لا يعـــدو واحداً من أولئك المعجبين العاديين المثيرين للاشمئزاز الذيـــن يتبعونـــي دائمـــاً ـ كمـــا يحـــدثُ دائمـــاً ـ فســـيكون مـــن السهلِ عليَّ جـــداً أن أمنعَـــهُ مـــن التمـــادي فيمـــا لا أريـــد بأحد ردودي الحادَّة، اللاذعةِ، المعروفة عني.

انطلقتْ الطـــائرةُ واندفعَـــتْ فـــوقَ المـــدرَّج. توقّفَـــتْ. ثم بَدَأتْ محركاتـــها تـــدور بســـرعة كبـــيرة. لـــم أســـتطع أن أمنع نفسي من إلقاء نظـــرة علـــى يـــد الرجـــل الجـــالس

بجانبي وهي ممدودةٌ على مسند المقعد. كانت يدَ شاب كبيرةً وقويةً، تميل إلى اللون الأحمر القاني أشبه بالدم.

كان لوناً من نوعٍ خاصٌ لم أرَ مثله من قبل. غير أن كآبتي كانت أقوى من فضولي.

أجهشت في البكاء مرّةً أخرى وأنا أتطلّعُ إلى اللوحة المضيئة في الجانبِ الآخر من الطائرة: "الرجاء ربط الأحزمة وعدم التدخين".

وفجأة انطلقت الطائرة بسرعةٍ فائقةٍ، وما هي إلا لحظات قليلة حتى بَدَأتْ تقتلعُ جذورَها من الأرض، وراحت ترتفعُ في خطٌ عاموديٌ تقريباً صوب السماء.

وضعتُ يدي فوق يد الشاب كأنني خائفة. وما إن مرّت لحظات حتى اهتزّت الطائرةُ هزّةً عنيفةً، فانتهزت الفرصة ورحْتُ أضغطُ يدَهُ وأنا متشنّجةٌ. استدرْتُ نحوه ونظرتُ إليهِ.

لم يخطئْ حَدْسِي: فقد كانَ هو الرجلَ الذي أبحثُ عنه. شابٌ، وسيمٌ، كان لا ريبَ لا يعرف من أنا. وثمة شيئان اثنان أثارا اهتمامي بصورةٍ خاصّةٍ، عيناه الخضراوان المترقرقتان، وكأنهما حُرِمتا نعمةَ النظر، وقد أعماهما ذاك الترقرق، والفرقُ بين لونِ بشرتِهِ الفاتح جداً ويديه الداكنتين جداً.

نَظَرَ كلٌّ منا إلى الآخر للحظاتٍ. ثم قلتُ وأنا أجهشُ في البكاء، وقد سالت دمعتان على خديَّ: "إني أشعرُ بوحدةٍ قاتلةٍ".

أجابني باستغرابٍ وقد افترّت شفتاه عن ابتسامةٍ كشفت عن أسنانِهِ البيضاء الحادّة كأسنان ذئبٍ: "امرأةٌ جميلةٌ مثلك

وتشعرُ بالوحدة؟".
ــ وحيدةٌ لأني جميلة.
ــ غريبٌ كنت أظنُّ أن الجمالَ يتيح فرصَ اللقاءاتِ وإقامةِ الصداقاتِ والعلاقاتِ الغراميةِ بسهولةٍ.
ــ نعم، لكن شريطة أن يبقى خارجَ السوق.
ــ أي سوق؟.
ــ السوق الذي يُعرضُ فيه الجمالُ سلعة مثل أي شيء آخر.
ــ ثم ماذا؟.
ــ عندئذٍ لن تكون هناك لقاءاتٌ ولا صداقاتٌ أو علاقاتٌ غرامية تحتاج إلى أقلِّ درجةٍ من الاختيار والحرية والاستقلال. فليس هناك إلا أسعار السوق المرتفعة أو المنخفضة.
ــ وجمالك ... ألم يبقَ خارج السوق؟.
ألقى سؤاله بلهجةٍ بارعةٍ لا تثير أدنى شك وخالية من التصنع. إنه إذن لا يعرف من أكون. وبنفسٍ مكلومةٍ قلت: "لا، ... إن جمالي معروضٌ في السوق منذ عدَّةِ سنوات. فأنا في الحقيقة ممثلة سينمائية مشهورةٌ جداً. وأجري يُعَدُّ من أعلى الأجور".
ــ حقاً؟
راودني شعورٌ أنه كان يسخر مني. فقد كان في ابتسامتِهِ الماكرةِ الخبيثةِ، لا سيما في نظرته المترقرقة الغامضة، شيءٌ يثيرُ القلقَ. قلت له بثباتٍ اسمي.
وعندما رأيتُ أنَّهُ لم يَبْدُ عليه أيُّ تأثُّرٍ أضفت: "لعلَّك لم تسمع باسمي قط؟" فأجاب بشيءٍ من الارتباك: "لقد أمضيت عدةَ سنوات في منطقةٍ شبه معزولةٍ في إفريقيا. فأنا رحَّالةٌ، وقد عشت ستَّ سنواتٍ في أحد الأصقاع البريةِ

من البلاد الممتلئة بالمستنقعات والغابات حيث تنتشر النباتات المتسلقة والحيوانات المتوحشة. ولم تكن تصلني أخبارٌ من ... من العالم الخارجي. أما الآن، وما أن تطأ قدماي أوروبا، فسأذهبُ لمشاهدة أفلامك. ولكن لماذا تبكين؟".

هززتُ رأسي ولم أنبسْ بكلمةٍ، لكني كنتُ لا أزالُ أضغطُ على يدِهِ. وسرعانَ ما هدأتُ.

ثم قلتُ له: "احكم بنفسك. لقد وُلدْتُ في بلدةٍ صغيرةٍ لا يتجاوز عددُ سكانها الخمسة آلاف. لاحظ خمسة آلاف، إنه عددٌ لا بأس به.

وكان يوجد في البلدةِ نموذجٌ واحدٌ من كل شيء: صيدليةٌ واحدةٌ. كنيسةٌ واحدةٌ. مكتبةٌ واحدةٌ. مقهًى واحدٌ. بائعُ تبغٍ واحدٌ. دارُ سينما واحدةٌ، وهكذا دواليك.

وعندما بلغت الخامسة عشرةَ من عمري، كنت أعرفُ الخمسة آلاف إنسانٍ وكانوا جميعُهم يعرفونني. وكنت أبادلُهم التحية. وإذا ذهبت إلى السوقِ للتبضُّع كان أصحاب المتاجر ينادونني باسمي، وأنا أناديهم باسمهم.

وكنت أعرف الفلاحين الذين يعملونَ في الحقول وهم يعرفونني جيداً. وأنا أعرفهم معرفةً جسديةً وثيقةً وودِّيةً.

وعندما أقول "جسدية" فإني أعني أنَّ كلَّ أولئك الناس كانوا يرمقونني بعيونهم، مرةً على الأقل، وليس صورتي فقط. بل كانوا يتطلعون إليَّ شخصياً بشحمي ولحمي كما كنت أنا أنظر إليهم. والآن دعنا نقفز عشر سنوات إلى الأمام، فأنا الآن في الخامسة والعشرين من عمري. مشهورة كما قلت لك، ومع ذلك فإن

شعوري بالوحدةِ في ازديادٍ. وأنا لست غبيــــة، بــل أعــرف حقيقةَ الأشياءِ ولا أكفُّ عن التفكـــيرِ بـــهذه الوحـــدة. ويبـــدو لي اني أعرفُ تفسيرَ ذلك. إن ســـببَ هـــذه العزلـــةِ يُعـــزَى إلى خطأٍ ارتكبته أنـــا، ولكـــن كيـــف بإمكـــاني أن أفسِّـــرَهُ؟. إنه خطأٌ في الحساب.

كمـــا لـــو أنننـــي قلـــت لنفســـي فـــي بدايـــة عملي الناجح، عندما كنتُ فتاةً صغـــيرةً مغمـــورةً فـــي بلـــدةٍ ريفيـــةٍ، كنـــت أعـــرف خمســـة آلافِ إنســـانٍ معرفـــةً جسديةً وعاطفيـــة، ولكـــن عندمـــا يعرفُنـــي العـــالمُ أجمـــع، ملايين وملايين من البشر، ســـيعرفونني جســـدياً وعاطفيـــاً، فـــإن هـــذا ســـيدخلُ الـــدِّفءَ والســـرورَ إلـــى قلبـــي ولـــن أعرفَ الوحدةَ مطلقاً".

ــ بدلا من ماذا؟

ــ لقد كان خطأً كبيراً كمـــا قلـــتُ لـــكَ. فـــي الحقيقـــة فإن الشــــهرةَ تعنـــي أن يكـــونَ المـــرءُ وحيـــداً. أن تكـــون مشهوراً يعني أنك أصبحـــت معروضـــاً فـــي واجهـــةِ أحـــدِ المحـــلات. إذ يـــأتي الجميـــعُ وينظـــرونَ إليـــك خـــلال مرورهـــم بـــك، إلا أن أحـــداً لا يســـتطيع أن يلمسَـــكَ ولا تستطيع أن تلمسَ أحداً. وأنا أعني فعلاً اللمس، كمـــا ألمـــسُ يَدَكَ الآن.

رنـا إليّ بنظرة مُفعمةٍ بالعطف، لكنه قـــال: "إن ذلـــك لا يهم، فأنتِ على كل حال مشهورةٌ".

ــ وهل تظنُّ أنه أمرٌ رائعٌ أن تكون مشهوراً؟

ــ إنه أروعُ شيءٍ في الوجود. وأنا علـــى اســـتعدادٍ لأن أفعلَ أيَّ شيءٍ كي أصبحَ مشـــهوراً، بـــل إنـــي مســـتعدٌّ لأن أرتكبَ جريمةً من أجل ذلك.

ــ ولكن ستصبح مشـــهوراً ليـــومٍ واحـــدٍ فقـــط، ومـــع

صدور طبعة صحفٍ بعد الظهر ستتلاشى وتصبح في العَدَم.

ــ ولكن ماذا يجعلكِ تظنين أنه يجبُ علي أن أقتلَ إنساناً عادياً؟ بل يجب أن أقتلَ إنساناً مشهوراً، وعندئذٍ ستنتقلُ شهرتُهُ إليَّ، فتصبحُ مُلكِي، تماماً كما كان يسودُ الاعتقادُ هنا في إفريقيا أنه إذا ما تناول إنسانٌ كبدَ عدوِّه فسيَرِثُ شجاعته.

انقطع الحديثُ بعد أن أخذت الطائرة تهبطُ في المطار. وفجأة، في اللحظة التي حطَّت فيها الطائرةُ على الأرض وبدأت ترتجُّ، ومحركاتها تهدر بقوة، أدركت أن الشابَّ قد نهضَ عن كرسيه واتجه صوب بابِ الطائرة. وشاهدته وهو يتقدم صفاً طويلاً من الركاب الذين أخذوا يتأهبون لمغادرة الطائرة. وكان يفصلني عنه ما لا يقل عن عشرين إنساناً، عندها أدركت تماماً أنني سأفقده. لقد كنت وحيدةً قبل أن أقابله، وسأعود وحيدةً الآن.

توجَّهت إلى فندقٍ من الدرجة الأولى في عاصمة الجمهورية الإفريقية الجديدةِ التي كنتُ بصددِ زيارتِها، وقدَّموا لي جناحاً خاصاً: غرفة نوم، وغرفة جلوس وحمام.

وعلى المنضدة كانت توجد سلةٌ ممتلئة بالفواكه الاستوائية وعليها قصاصة من الورق لم أفتحْهَا لأني كنت أعرف محتواها سلفاً: "مع أطيب تمنيات الإدارة".

ارتديتُ الروبَ واتجهت نحو النافذة ورحت أتطلّعُ منها. كانت النافذةُ تطلُّ على البحر الذي كان هائجاً وهادراً، وبدا كأنه يموج تحت وطأة الضوء المبهر،

مالئاً السماء المدلهمَّة بالضباب. وإزاء الفندق تماماً، وعلى الطرف الآخر من الممر المهجور، كانت تُعلَّقُ صورةٌ كبيرةٌ بحجم شاشة السينما، كُتِبَ اسمي تحت اسم الفيلم بأحرفٍ كبيرةٍ حمراءَ. وفي زاوية اللوحة، كانت صورتي وأنا شبه عاريةٍ بين ذراعي رجل.

سمعت طرقاً على الباب فقلت: "ادخل". وكم كانت دهشتي كبيرة عندما رأيت الشابَّ الذي كان يجلس بجانبي في الطائرة.

أغلقَ الباب وراءه. اتجه نحوي وضمني بين ذراعيه، لكنه لم يقبلني. تراجع بضع خطوات إلى الوراء وقال: "لقد تظاهرتُ أني لا أعرف من أنتِ؟ لكني أعرفك حق المعرفة. إذ كانت صوركِ تصلني إلى العيادة في مجلاتٍ كثيرةٍ، وكنتُ دائماً أقصها وألصقها على جدران بيتي".

ــ كيف وأية عيادة؟ ألم تقل إنكَ رحَّالة؟ ألم تعش ستَّ سنوات في منطقةٍ نائيةٍ منعزلةٍ ممتلئةٍ بالمستنقعات والغابات؟.

ــ نعم هذا كان يقوله لي طبيبي أيضاً: إنني رحالة مختبئ بين المستنقعات والغابات، وأنه قد آن الأوان كي أخرجَ من مخبئي.

وعلى الفور فهمت حقيقة ما يجري وما سيجري لي. هل كنت خائفةً؟ لا ... ليس حقاً. لكنني تظاهرت أني خائفة، وما أن تملَّصْتُ من بين ذراعيه بعد أن أطلقتُ صيحة تَنِمُّ عن الذُّعْر، هرعت إلى الباب. كنتُ أعرفُ جيداً أنه كان موصداً، وأنه يخبِّئ المفتاحَ في جيبه. غير أني تظاهرت أني أدقُّ على البابِ بكلتا يديَّ. فأنا قبل كل شيء ممثلة، وقررت أن

أموتَ ممثلة.

أطلقَ الرصاصة الأولـى علـيَّ، وأنـا لا أزال واقفـة إزاء الباب. اتَّجهت نحو السرير وألقيت بنفسـي فوقـه كـي أموتَ بطريقةٍ تليق بي.

كنت أعرف أني أنزفُ دماً كثـيراً. أغمضـت عينـيَّ. فتحتهما ثانية على الفور ورأيته ينحني فوقـي ويحـدِّق بـي. شعرت بالحاجةِ إلى أن أقول له شيئاً عاطفيـاً قبـل أن أسْـلِمَ الروح. دمدمتُ وأنا أنشج: "هل أنت راضٍ يا ولدي العزيـز؟ فغداً ستصبحُ مشهوراً. نعم سـتصبح مشـهوراً فـي أرجـاء المعمورة".

دعابات الطقس الحار

عندما يَحُلُّ الصيفُ يعتريني دائماً حنينٌ للهروب، ولعلَّ سبب ذلك أنني ما زلت يافعاً، ولم أتأقلم جيداً بعد مع الواقع بأنني أصبحت زوجاً وربَّ أسرة.

ففي الصيف، يُغلقُ الأغنياءُ نوافذَ بيوتِهم في الصباح كي لا تتسرَّبَ حرارةُ النهار، وفي الليلِ تَهُبُّ النسائمُ الباردةُ العليلةُ في تلك الغرفِ الفسيحةِ، حيث تتلألأ المرايا والأرضيَّات المرمرية، والأثاث اللامع تحت الضوء الخافت. فكل شيء في مكانه الصحيح، وكلُّ شيءٍ نظيفٌ ولامعُ ومرتَّبُ. حتى الصمت يكون في هذه البيوت مريحاً مثل النسيم العليل وإذا ما شعرت بالعطش في جوفك، يحضر لك أحدهم شراباً مثلجاً لطيفاً أو عصير برتقال أو ليموناً في إبريقٍ من الكريستال فوق صينية، وأنت تسمع قطعَ الثلج الصغيرة وهي تتحرك وتصدر صوتاً بهيجاً منعشاً بنفسه.

أما في بيوتِ الفقراء، فإن الأمورَ تختلفُ تماماً. ففي أول يومٍ قائظٍ تهاجم الحرارةُ الخانقةُ غرفَكَ الصغيرةَ الخانقة وتستقرُّ فيها. وإذا ما رغبتَ في تناول شرابٍ، يأتيك على الفور ماءٌ دافئٌ أشبه بالحساء من صنبور المطبخ. أما في داخل البيت، فإنك تكاد لا تستطيع أن تتحرك: فكل شيء — الأثاث، الثياب، أدوات المنزل — يبدو منتفخَ الحجم، ويُخيَّل إليك أنه سيسقط على رأسك. والجميع يرتدون قمصانهم الداخلية العابقة برائحة العرق. وإذا ما أوصدت النوافذ، فإنك

ستختنق لأن هواء الليل لا يتسرَّب إلى هاتين الغرفتين أو الثلاث غرف حيث ينام ستة أشخاص. وإذا ما فتحْتَهَا فستلفحُكَ الشمسُ بلهيبِهَا الحارق، كأنك أصبحت تجلس في الشارع حيث يَنْضَحُ كلُّ شيءٍ بالروائح النتنةِ ورائحة العرق والغبار. وفي الجوِّ الحارِّ، يصبح الناس كذلك حارين، أي أنهم يصبحون ميالين إلى الشجار. إن الغني إذا ما أحس بوطأة الحرِّ، انتقلَ إلى الطرف الآخر من بيته. أما الفقراءُ، فعليهم البقاءُ محشورين كعلب السردين، وسط الصحون والكؤوس المتَّسخة الممتلئة بالدهون.

في أحد تلك الأيام القائظة، جرت مشادَّةٌ حادَّةٌ بيني وبين جميع أفراد الأسرة ـ مع زوجتي لأن الحساءَ كان مالحاً ويغلي غليانا، ومع ابن حميَّ لأنه وقف إلى صف زوجتي، ولأنه في رايي لا يحقُّ له أن يفعل ذلك، لأنه عاطلٌ عن العمل ويقيم عندنا، ومع ابنة حميَّ لأنها دافعت عني، مما أثار اشمئزازي لأني أعرفُ أن موقفها نابعٌ من حبها لي، ومع أمي التي حاولت تهدئتي، ومع أبي لأنه أبدى اعتراضاً وقال إنه يريد أن يتناول طعامه في سكنية وهدوء، بل حتى مع ابنتي الصغيرة التي انفجرت في البكاء.

وفجاة وَثَبْتُ على قدميَّ. أخذتُ سترتي القابعة فوق الكرسي وقلت: "اسمعوا جيداً إلى ما سأقوله لكم. لقد سئمتكم جميعاً. إني ذاهبٌ ولن أعود حتى تشرين الأول عندما يصبحُ الطقسُ بارداً". وخرجت من المنزل محتدماً. وجرت ورائي زوجتي، تلك العزيزة المسكينة، وراحت تناديني من خلف قضبان الدرابزين، وقالت إنها أعدت لي طبقاً من سَلَطةِ الخيار التي أحبُّها كثيراً. قلت لها أن تأكلها هي، وهبطت الدرجاتِ بسرعةٍ إلى الشارع.

اجتزت شارع "أوستينس" الذي نقيم فيه، وهِمْتُ على

وجهي على غير هدًى. قادتني قدماي إلى جسر الحديد قــرب ميناء "روما" على النهر. كانت الساعةُ تشيرُ إلى الثانيةِ بعــد الظهر، أي أكثر أوقات النهار قيظاً، وكانت الســماءُ زرقــاءَ كالحةً، كأنه قد وجِّهت إليها ضربةٌ فأصيبت بكدمــة، وكــانت تنذر بهبوب رياح حارة.

عندما وصلت إلى الجسر، انحنيــت فــوق الســور ذي الأعمدة الحديدية. كان القيظ لاهباً. وبدا أن التيبر المحصــور بين الأرصفة مثل مجارٍ مفتوحة، وكان لونــه نفــس لونــها الطيني. وحجب خــزَّان الغــاز الــذي بــدا كــهيكل بنايــة محروقــة، والمصــاهر، وأبــراج الســلوات، وأنـــابيب خزانات البترول، والسطوح المستدقة لمحطة توليد الكــهرباء، حَجَبَتْ جميعُهَا الأفقَ بحيث يخيل إليك أنك لست فــي رومــا، بل في إحدى مدن الشمال. وقفت لحظاتٍ وأنا أُمْعِــنُ النظــر في نهر التيبر، ذلك النهر الصغير الأصفر، وكانت تقف إلــى جانب الرصيف عوَّامةٌ مُلِئَتْ بأكياس الإسمنت. لم أتمالك نفسي من الضحك عندما خطر لي أنَّ هذا النُّهَيْرَ يدَّعي أنه ميناءٌ مثل موانئ "جينوة" و"نابولي" التي تكتظُّ فيها الســفنُ مــن جميــع الأحجام والأنواع. وإذا أردت أن أهرب حقاً من هذا الميــناء الصغير، فربما يمكنني أن أتوجه إلى "فويمنســيوف"، حيــث يمكنني الجلوس وتناول السمك المقلي وأنا أطلُّ على البحــر. عاودتُ السيرَ وعــبرت الجســرَ ومشيــتُ باتجــاه الريــف الممتد على الطرف الآخر من النهر. وبالرغم من أني كنــت أقيم بالقرب من هذا المكان، إلا أني لــم آت قــط إلــى هــذه البقعة. ورحت أسير دون أن أعــرف وجهــة ســيري. فــي البداية، سرت على طول الطريق الإسفلتي الذي كــان يجتــاز حقولاً جرداء تناثرت فيها الأوساخ. ثم ينتهي هــذا الطريــق الإسفلتي إلى ممرٍّ ترابيٍّ، حيث تزداد الأوساخ لتصبحَ أكوامــاً

وتلالاً صغيرة. وأدركت أني جئت إلى المكان الــــذي يلقــون فيه نفاياتِ "روما". ولم يكن في تلك الحقولِ عُشْبَةٌ واحـــدةٌ؛ لا شيءَ سوى أوراقٍ متطايرةٍ، وصفائحَ صدئةٍ، وجذوعِ الملفوفِ بالإضافة إلى نفاياتٍ أخرى سُلِّطَتْ عليها أشعةُ الشمس اللاهبة، فأخذت تفوحُ منها الروائحُ النتنـــةُ الحامضـــةُ مثـل رائحـةِ الأشياءِ المتفسخةِ. شعرتُ بالضياع والحيرة، وشعرت أنه ليس لديَّ رغبة في المضيِّ أبعد من ذلك، لكني لم أشأ فــي الوقــت نفسه أن أعودَ أدراجي، وفجأة سمعت صوتاً يهمس: "بســـت، بست، بست"، كما لو كان أحدُهم ينادي كلباً.

استدرتُ وتطلّعتُ حولي باحثاً عن ذلك الكلب، لكني لــم أجد أثراً لأي كلب، على الرغم من أن هذا المكان هو أفضـــلُ مكانٍ لإقامة الكلاب الضالّةِ. لذا ظننـــت أن أحـداً ينــاديني، فتطلعت نحو المكان الذي صدر منه الصوتُ. رأيـــتُ كوخـــاً وراء أكوام النفايات. كوخاً صغـــيراً مـــائلاً ذا ســطح مــن الصفيح لم أكن قد رأيته قط. وكـــانت هنـــاك فتـــاةٌ صغـــيرةٌ شقراءُ في حوالي الثامنةِ من عمرها، تقف عند مدخل البيـــت، وهي تشيرُ إليَّ أن أدخلَ. نظرت إليها كان وجهها أبيضَ وسخاً ذا بقعٍ ورديةٍ تحت عينيها، كأنها امرأة كهلة، وكـــان شعرهـــا المزروع بالقشِّ وقطع الطين منتفشاً. كانت ترتدي ثوباً بسيطاً: كيساً من الخيش ذا أربعـــة ثقــوب، اثنـــان عنـــد ذراعيـــها، وآخران عند ساقيها. وما أن استدرت حتى بادرتني بالســؤال: "هل أنتَ طبيبٌ؟" فأجبت: "لا، لكن لماذا؟ هــل أنــتِ بحاجـــة إلى طبيبٍ؟" فأردفت: "إذا كنتَ طبيبـــاً فـــأرجوكَ أن تدخـــل. إن أمي مريضةٌ".

لم أشأ أن أستمرَّ في محاولةِ أني لست طبيباً، فدلفت إلى الكوخ. للوهلة الأولى، خطر لي أني دخلت إلى محـــلٍّ لبيـــع الألبسة المستعملة في "كامبودي فيوري". كـــان كـــلُّ شـــيءٍ

معلّقاً ومدلًى من السقف ــ ثياب، كلسات نسائية أحذية، أدوات منزلية، قدور، مقلايات، أسمال بالية، لكـــن... ســرعانَ مــا أدركت أنها ثيابهم، وهي معلقة على مسامير، ولم تكن توجـــد أي قطعة أثاث. وعندما كنت أتحـــرك فـــي هـــذا الاتجـــاه أو ذاك، كنت أضطر لأن أحنيَ رأســـي كـــي أتفـــادى الأشيـــاءَ المدلاّة، وأنا أبحثُ عن أم الفتاة.

أشارت الفتاةُ الصغيرةُ بإيماءةٍ مُخْتَلَسَةٍ، إلى كومـــةٍ مـــن الأسمال في إحدى زوايـــا البيـــت. أمعنـــتُ النظـــر أكـــثر، وسرعان ما تبيَّنْتُ أنَّ تلكَ الكومةَ من الأسمال كـــانت تحـــدِّق بعينٍ واحدةٍ متوهجةٍ ... أما العينُ الأخرى فقد كانت تغطّيـــها خَصلَةٌ من شعرها الأشيب. لقد بهرني منظرُ المرأةِ، فقد بـــدت كأنها امرأةٌ عجوزٌ، ولكني سرعانَ ما أدركـــتُ أنـــها كـــانت صبيةً في مقتبل العمر. وما إن وقـــع بصرُهـــا علـــيَّ حتـــى اندفعتْ على الفور قائلةً: "هكذا إذن!! فقدت عدتَ ثانية".

أطلقت الفتاةُ ضحكةً عالية، كما لو كان ذلك بداية مشهدٍ مثيرٍ للضحك، ثم قرفصتْ على الأرض، وراحت تلعب ببعض علب التَّنَك الفارغةِ. "حقاً إني لا أعرفك ...ماذا دهاك؟؟ هـــل هذه الفتاة ابنتكِ؟" فأجابت: "طبعاً إنها ابنتي. وابنتـــكَ أيضـــاً". ندت عن الطفلة ضحكةٌ أخرى، ورأسُهَا مطأطئٌ على الأرض. ظننتُ أنَّ الأمرَ لا يعدو كونه مزحةً فـــأجبتُ: "ربمـــا كـــانت ابنتي، ولكنها ابنةُ رجلٍ آخـــرَ أيضـــاً". فقـــالت المـــرأة: "لا" ونهضت قليلاً، وأشارت إلـــيَّ بإصبعـــها وأضـــافت: " إنـــها ابنتُكَ، وليست ابنةَ أحدٍ غيركَ ... إنك محتالٌ، جبانٌ، كســـولٌ، هذه هي حقيقتكَ".

عندما تفوَّهت بتلك الكلمـــاتِ المُهينـــةِ، أخـــذت الفتـــاة تضحك بملءِ فيها، كما لـــو كـــانت تتوقَّـــع ذلـــك. شعـــرت بالإمعانِ في الإهانةِ، فقلت لها: "انتبهي إلى ما تقولين ... لقـــد

قلتُ لكِ إني لا أعرفك".

ــ أنت لا تعرفني هيه؟ إنك لا تعرفني ولكنك عدتَ برجليك ...لو كنتَ لا تعرفني فكيف إذاً وجدتَ طريق هذا البيت؟.

راحت الفتاةُ تدندنُ لحناً بصوتٍ منخفضٍ: "محتال... محتال ...جبان". أخذ العرقُ يتصبَّبُ مني الآن وذلك بسبب الحرارةِ الخانقةِ ونتيجة شعوري بالارتباك.

قلت: "كنت ماراً بالصدفة". قالت: "آه ...نعم أيها الأحمق المسكين" والتفتت نحو الطفلةِ وقالت لها: "ناوليني الكيس"، وبحركةٍ سريعةٍ، أنزلت الفتاةُ من السقفِ حقيبةَ يدٍ سوداءَ مخملية مهترئةً، وقد علاها الغبارُ والأوساخُ، وناولتْهَا إياها. فتحَتْهَا المرأةُ، وأخرجت منها ورقةً وقالت: "هاهو صكُّ الزواج ..."ألفيرا بريوتي" و"إرنستو رابيللي" ...هل تصرُّ على الإنكار يا "إرنستو رابيللي"؟".

أصِبْتُ بالذهول لما سمعْتُ، فقد كان اسمي حقاً "إرنستو". انتابني شيءٌ من الاضطراب فقلتُ: "لكني لا أدعي "رابيللي"". وكانت الفتاةُ خلال ذلك تغني بصوت ناعم: "آه... لا؟ "إرنستو" "إرنستو"". استوت المرأةُ واقفةً. لقد كان حدسي صحيحاً. فعلى الرغم من شعرها الأشيب وتجاعيدها وعدم وجود أسنانٍ كاملةٍ في فمها، كان من الواضح أنها لم تكن تتجاوز الثلاثين من العمر وقالت: "هكذا إذن فأنت لستَ "رابيللي"؟" وأسندت يديها على ركبتَيْهَا، ودَنَتْ مني وأخذت تحدِّق في وجهي، ثم قالت بصوت مرتفع: "أنت "رابيللي"، أمام الله والناس. أقسم بأنك "رابيللي""، فقلت: "فهمتُ الآن... إنكِ لستِ على ما يرام. اسمحي لي فإني ذاهبٌ".

ــ انتظر لحظةً ... ليس بهذه السرعة".

وفي غضون ذلك، كانت الطفلةُ ترقصُ حولنا، وكانت

في غاية السعادة. استأنفَتْ المرأة حديثها بنبرةٍ ساخرةٍ: ""إرنستو" ... العظيم، الذي هجر زوجته، وهرب من بيته منذ عامٍ ولم يعد حتى الآن ...ولكن هل تعرف بماذا كنا نقتاتُ، أنا وهذه المخلوقة، خلال هذه السنة، خلال هربكَ؟".

قلتُ بفظاظةٍ: "لا، لستُ أعرف، ولا أريدُ أن أعرفَ، دعيني وشأني". فقالت الفتاةُ بصوتٍ طروبٍ والفرحةُ تغمرها: "من الصدقات" واقتربتا مني أكثر وأكثر.

يجب أن أقرَّ أنَّ قلقاً شديداً أخذ يجتاحني. جميع هذه الصدف ــ اسم "إرنستو"، مغادرتي لبيتي، ووجود زوجة وطفلة عندي ــ جعلتني أشعر شعوراً غريباً، وهو أنني لم أعد أنا نفسي، ولكني في الوقتِ نفسِهِ أنا لكن بطريقةٍ لم آلفْهَا. في غُضُونِ ذلك صرخَتْ المرأةُ في وجهي، وتحتَ أنفي تماماً بعد أن رأت التردُّدَ والقلقَ يعتريني: "هل تعرفُ ما مصيرُ الرجالِ الذين يهجرون زوجاتِهمْ وأطفالَهُمْ؟ السجنُ ... هل تفهمُ أيها الشريرُ؟ السجنُ ...".

تملّكني الخوفُ الآن، ودون أن أنْبِسَ بكلمةٍ واحدةٍ، استدرْتُ نحو البابِ وهَمَمْتُ بالخروجِ. إلا أنه كان هناك إنسانٌ يتطلّعُ إلينا من عتبة الباب، امرأةٌ، نحيلةٌ، فقيرةٌ، لكنها أنيقةٌ في ملبسها.

وبعد أن رأت أني كنت مرتبكاً قالت بهدوء: "لا تُعِرْ هذه المرأة اهتماماً ... فهي تظنُّ أنَّ أيَّ رجلٍ تقعُ عينُهَا عليه هو زوجُها ... وهذه الفتاةُ القردةُ تستدرج كلَّ الرجالِ الذين يمرُّون أمام المنزل، وهي تجدُ متعةً في سماعها وهي تصرُخُ وقد اعتراها الجنونُ ... انتظري حتى أمسكَ بكِ أيتها القردةُ المسخ"، ورفعت يدَها لتصفعَ الفتاةَ، إلاَّ أنَّها أفلتَتْ منها بسرعةٍ، وراحت ترقُصُ حولي وهي تقول: "لقد

صدَّقتَها أليس كذلك؟ ... صدَّقتَها ... لقد انتابكَ الخوفُ ... لقد ذُعِرْتَ ... ذُعِرتَ".

قالت المرأةُ بهدوء: ""ألفيرا"، هذا ليس زوجَكِ" وعلى الفور، كأنها اقتنعت بكلامها، عادت "ألفيرا" وجلست القرفصاءَ في إحدى زوايا المنزل. أما المرأةُ الأخرى، فقد تركتني حيث كنت واقفاً، وخرجت من الكوخ، وراحت تحرِّكُ نارَ المَوْقِدِ في الخارج، ثم قالت: "أنا التي أجلبُ لهما شيئاً تقيمان أوْدَهُمَا ...إنهما حقاً تعيشان على الصدقاتِ، لكنَّ زوجَهَا لم يهربْ بل تُوفِّيَ".

كفاني ذلك. تناولتُ من محفظتي مئةَ ليرٍ وأعطيتها للطفلة التي أخذتْهَا دونَ أن تشكرَنِي. غادرتُ الكوخَ، وعدتُ أدراجي من حيث أتيتُ. مشيتُ فوق الممرِّ الترابيِّ، ثم على الطريقِ الإسفلتيِّ، وعبرتُ الجسرَ وعدتُ إلى شارع "أوستنس".

بعد الحرارةِ التي لفحتني، داخلَ الكوخ، بدا لي عندما عدتُ إلى بيتي كأني أدخلُ كهفاً بارداً. وبالرغم من قلَّة قطع الأثاث في بيتنا، وبالرغم من شدَّة تواضعه، فقد كان أفضلَ بكثيرٍ من تلك المسامير التي كانت هاتان المخلوقتان التعيستان تعلّقان عليها أسمالَهُمَا البالية.

كانت الطاولةُ في المطبخ قد أصبحت نظيفةً، وأخرجَتْ لي زوجتي طبقَ سلطةِ الخيار، الذي خبَّأتْهُ لي فالتهمتُهُ مع قطعةِ الخبز. ورحت أرنو إليها وهي تقف وراء المجلى، تغسلُ الصحونَ والسكاكينَ والشوكَ، ثم نهضتُ وسرقتُ منها قُبْلَةً على مؤخِّرَةِ عنقِهَا وتصالحْنَا.

بعد عدَّةِ أيَّامٍ، حكيت لزوجتي قصة الكوخ، ثم قرَّرت العودةَ إلى ذلك المكان لأرى فيما إذا كان بوسعي أن أفعلَ شيئاً تجاه الفتاةِ الصغيرةِ. ولم أخشَ هذه المرة أن تُطلِقَ عليَّ المرأةُ

اسمَ "أرنستو رابيللي". لكن هل تصدقون: فأنا لم أجدْ الكوخَ أو المرأةَ أو الطفلة، حتى تلك المرأة النحيلة التي كانت تعدُّ طعاماً لهما. جلست هناك قُرَابَة الساعةِ تحت وهْج الشمس الحارقـــةِ بين أكوامِ النفاياتِ، غير أنـي عدتُ أدراجي مهزوماً. كنتُ أقول إني لا بدَّ أن أكونَ قد ضللت الطريقَ. بَيْدَ أنَّ زوجتي تقـــول: إني اخترعت هذه القصة نوعاً من تـــأنيب الضمـــير بعـــد أن فكَّرْتُ بهجرِهَا.

اللعبة

كان الحَنَقُ يجيشُ في صدري والأسى يعتريني. انتبذْتُ ركناً في حجرةِ الجلوس، ورحْتُ أدخِّن السيكارةَ تِلْوَ الأخرى، وأنا أراقبُ ابنتي الصغيرةَ "جينفيرا"، وهي تلعبُ على السجادةِ بدميتِها بهدوءٍ تامٍّ. كان قد مضى على انتظاري ساعةً كاملةً، بعد أن انتظرتُ نصفَ يومٍ حلول هذه الساعة المصيرية. فقريباً، بل قريباً جداً، سيتحوّل وجود "رودلفو" من فرضيةٍ معقولةٍ إلى أملٍ مجنونٍ.

كانت المرآة أمامي تعكس صورتي امرأةً قد هدَّهَا القلقُ وأضناها الحزنُ. بائسة ومنهكة: وجهٌ متغضِّنٌ ساهمٌ. وجنتان ناحلتان شاحبتان.عينان غائرتان في محجرين فارغين محمومين. فمٌ معذَّبٌ بشفتين مبرطمتين متدليتين بقلقٍ. وكان جسدي عبارة عن هيكل عظمي، مقوّس، تصدر عنه حركاتٌ مفاجئةٌ، كأنها لعبةٌ مذعورةٌ. صورة امرأة أصيبت بالخزي لأنها حُرِمَتْ من السعادة والنعيم. فبالله عليكم، ما أكثر ذلاً من كلبٍ يلوِّح بذيلِهِ وهو يجأر ويتمسَّح بقدمَيْ سيِّدِهِ؟ نعم، لقد كنت أنا لسوء الحظ هذا الكلب ، خذوا مثلاً "رودولفو"، انظروا كيف تمكّن هذا الممثل، من الدرجة الثالثة، ذلك التعيسُ، الغبيُّ، المدعي، الذي لا تلوح عليه أيةُ مسحةٍ من الجمال، من الإمساك بي من أنفي

وراح يقودني أينما شاء ويفعل بي كما يحلو له.

كنت أجلس في أحد مقاهي المدينة. رأيتـــــه. لــم نكــن نعرف بعضنا. راح كلٌّ منا يتطلّعُ إلـــى الآخــر مــن فــوق فنجــان القــهوة. وضعــت فنجــانَ قــهوتي الفــارغ علـــى الطاولة وتظــاهرت أنـــي ســأغادر المقــهى. أطلــق مــن خلفي صفرة. نعم صفرة واحدة، كما لو كان يصفــر لكلــب. أما أنا فقد أخذت على الفور أهـــزّ ذيلــي وأجــأر، وعــدتُ إليه لأتمرّغ عند قدميه. وهكذا تــمَّ كــل شــيء. فبعــد تلــك الصفرة، بدأت قصة غرامنا التعيسة.

أما محنتي الأخرى، فهي تتمثّل في كوني وحيـــدةً فـــي هذا الكون، فأنا أرملةٌ، لا يوجد لديَّ زوجٌ يعتني بـــي ويشــدُّ من أزري. كما ليس لديَّ أصدقاء مـــن كـــلا الجنســين. ولا يوجد لي في هذا الكون ســوى "جنفــيرا"، ابنتــي الصغــيرة ذات السبعةِ أعوام.

آه يا للأطفال. هل أتحدَّث عنهم. آه ... نعم ...دعونــا نفضي بهمومنا حـــول الأطفــال، هــذا الموضــوعُ الكبــير الشائك والمعقّد منذ أقدم الأقدمين. وإني لأتســاءل: "مَـــنْ أوّلُ مَنْ قال إن الأطفال أبرياء؟ " أياً كان، فمن المؤكّـــد أنــه لــم يكن يعرفهم معرفةً تامَّـــةً. انتبــهوا إلـــى مـــا ســأقولُه، إنَّ الأطفالَ كبارٌ، ولكن مع وجود تلـــك المشكلـــة القائلـــة إنـــهم أطفال. أعني: أنهم كبـــار، لأنـــهم يمتلكـون نفـس مشــاعر الكبار، إلا أنَّهم في الوقت نفسه، يتهرَّبون مـــن المســؤوليات التـــي يضطلـــع بـــها هـــؤلاء الكبـــار بحجـــة أن أيديـــــهم وسيقانَهم وأجسامَهم ورؤوسَهم، باختصار: تكوينهم الجســـدي، لم تتطوَّرْ وتنمُ بشكلٍ تامٍّ بعد. وهكذا، فبما أننا نشعـــر بذلــك في قرارة نفوسنا، فـــهم كذلــك تنتابــهم المشــاعرُ نفسُــهَا، ولذلــك لا نســتطيع أن نبثَّــهُم أســرارنا، أو نطلــبَ منـــهم

النصيحةِ أو المشورةَ أو المساعدةَ. لذلك، أودُّ أن أعرفَ ما فائدةُ الأطفالِ؟ وما السبيلُ إلى التعامل معهم؟.

فإذا ما قررتُ مثلاً، أن أتجاهل الآن أن "جنفيرا" لا تبلغ سوى سبع سنوات من العمر، لكان بإمكاني أن أبثّها أسراري وأن أفضي إليها بما يجيش في صدري وأحكي لها عن معاناتي وحَنَقِي من سلوك "رودولفو". إذ لا بدَّ أنني سأشعرُ بالراحة إذا طلبت منها أن تأتي وتجلسَ بجانبي، وأن أحتسي معها شراباً، شيئاً قوياً ـ "كالفودكا" أو "الويسكي" ـ كي أحُلَّ عقدةَ لسانِهَا، وأن أشعلَ سيكارة، بل أن نفتحَ علبةَ شوكولا جميلةً، ثم نتجاذب أطرافَ الحديث أصدقاء حميمين، وأفضي إليها بمكنونات صدري، وأحكي لها عن كل شيء يتعلق "برودولفو" وبي. أن نتكلَّمَ بالتفاصيل الدقيقة، وأن نمحِّصَ نفسينا، وأن نوضِّحَ الفروق بينها، وأن ندرسَ عن كَثَبٍ جميعَ الأخطاء التي بَدَرَتْ عن "رودولفو" تجاهي، وأن نتطرَّقَ أخيراً إلى ذلك الموضوع الشائكِ والحسَّاسِ عن علاقتنا الغرامية.

وعندها تكون الغرفة قد غلَّفها دخانُ السكائر، وأفْرِغَتْ زجاجةُ "الفودكا"، وفي النهاية ستغمرني الراحة والسعادة.

إلا أنَّه لا يمكن عملُ شيءٍ من هذا القبيل، على الرغم من أني كنت متأكدةً من أن "جنفيرا" تعرف كلَّ شيء عني وعن "رودولفو"، وأنه يجب عليَّ أن أستمرَّ في تمثيل ذلك الدور الغبي عن الأمِّ الحنون العطوف. "لا يا "جنفيرا" ... لا تشدِّي ساقَ الدمية المسكينة هكذا. إنك تؤلمينها. أيتها الفتاة الشقية، ماذا تقولين إذا قُمْتُ أنا أمُّكِ بشدِّ رجلك بهذه الطريقة؟ لكنَّ ماما تحبُّكِ ولن

تفعلَ ذلك أبداً". وإلى آخر ما هنالك.

ملاحظاتٌ سخيفةٌ لا يؤمن أحدٌ منَّا بها. ولكن قبل كل شيء، ويا للحسرة، فأنا أمٌّ طيبةٌ من الطراز القديم، ولا أريد أن أنسى أن طفلتي مازالت طفلةً بعد.

جالت هذه الخواطرُ في رأسي. نظرت إلى ساعةِ الحائط، وأدركت أنه لم يعد ثمة أملُ بقدوم "رودولفو". كان الغضبُ يعتصرني. أمسكتُ نفاضةَ السكائر المرمرية ورميتها على الأرض. وبالطبع فقد تهشَّمَتْ وتناثَرَتْ شظاياها.

رفعت "جنفيرا " رأسها قليلاً وقالت بهدوء: "ما رأيُكِ في أن نلعب لعبة يا ماما؟".

رنوتُ إليها. إن "جنفيرا" بشعرها الأشقر الناعم ووجهها الأبيض وعينيها الزرقاوين، ما هي إلا ملاكٌ. ولم تكن تحتاج إلاّ إلى جناحين من السكاكر. سألتها: "ما اللعبة يا حبيبتي؟".

ـ أن أصبح أنا أنتِ، وأنتِ أنا. أي أنا ماما وأنت "جنفيرا".

ـ ثم ماذا يا حبيبتي؟.

ـ عندها سأقول لك الأشياءَ التي من المفروض أن أقولَها لو كنتُ كبيرةً مثلك، وستقولين لي الأشياءَ التي من المفروض أن تقوليها لو كنتِ صغيرةً في مثل سني".

هانحن إذن: الألعاب. المورد الكبير. الزيف الكبير. المكر والحيل التي يمارسها الأطفال. فهم يقولونَ ويفعلونَ الأشياء التي يقولها ويفعلها الكبار، ولكنَّ ذلك يتمُّ ضمن إطار اللعبة. هل ترون مدى الخداع والنفاق؟ ... على كل حال، تظاهرت أني موافقةٌ، وقلت لها:

"حسن ...هيا نلعب هذه اللعبة".

بهدوءٍ وتأنٍّ، جلست قبالتي وقالت بصوت رفيع من المفترض أنه صوتي: ""جنفيرا"، هل لك أن تقولي لي لماذا تقومين دائماً باعتراض سبيلي عندما يأتي "رودولفو" لزيارتي؟" ... طبعاً انتهزت "جنفيرا" اللعبة لتذكرَ لي الأشياءَ التي تجولُ في خاطري، والتي لم يكن لديَّ الشجاعةُ الكافيةُ للتفوّهِ بها. بدرت مني إيماءةُ احتجاج، إلا أنَّها قاطعتني قائلة: "تذكري أنَّكِ أنا الآن يا "جنفيرا" وردِّي على سؤالي". فأجبتُ بصوت رفيع: "ماما، إني أعترض سبيلكِ لأني أحبُّكِ ولأنك أمي"، فأجابت بخبثٍ: "هذا هُراء. هذا ليس صحيحاً، إذ أنك تعترضين سبيلي لأنك تغارين مني، من أمِّكِ، وتريدين أن تبعدي "رودولفو" عنها وأن تأخذيه إليك".

كان ذلك صحيحاً. فقد كنتُ على قناعةٍ أن "جنفيرا" كانت مفتونةً "برودولفو" وإن كان ذلك بطريقةٍ طفوليةٍ. لكن كيف أدركَتْ أني أفهمُ هذه الحقيقة؟ بَيْدَ أني تظاهرت أنَّ ذلك لم يكن يعني لي شيئاً وأجبتها: "لكن من قال لك ذلك؟".

ـــ أنا أقول ذلك. من الناحية الأخرى، فإن الشيء الذي لا ترينه هو أن "رودولفو" لطيفٌ نحوكِ، ويحضر لك هدايا كي تتركينا وشأنَنَا في أمانٍ وسلامٍ. أو أنك تتظاهرين أنك لا تفهمين. وبسبب ذلك، نضطر، أنا و"رودولفو" إلى الدخول إلى غرفتِنَا، وإلى أن نغلقَ البابَ على أنفسِنا.

كان ذلك صحيحاً تماماً. فقد كنا نوصد الباب، وهذا من واجبنا. أما أنا فقد انتهزت بدوري فرصة اللعبة كي أؤنِّبَها فقلت لها وأنا مزهوّةٌ منتصرةٌ: "ومع ذلك، فإن ذلك لا يجدي نفعاً. إذ أبدأ بالدقِّ على باب غرفتك

طوال الوقت، أو آخذ في الصُّراخ والعويل".
وأدركت أن التأنيب هذا كان في محله، إذ أجابتني: "تستطيعين أن تفعلي ما يحلو لك. فأنت لا تثيرينَ إهتمامي بأي حالٍ من الأحوالِ".

كنت لا أزال أؤدِّي دوري بإخلاص، فقلت: "هل ذلك حقاً؟. إذن فأنا لا أعني لك شيئاً يا ماما؟" فأجابت بمكرٍ ودهاءٍ: "ليس كثيراً، ماذا تتصورين؟ فلو كنتُ أعني لك شيئاً ما، فلن أُحْدِثَ تلك الجلبة مع "رودولفو" في الليل، وأنعتَه بكلماتٍ قبيحةٍ بصوتٍ مرتفعٍ، وأرمي أشياءَ على رأسِهِ، وألحقُهُ إلى داخلِ غرفتِكِ الصغيرة للشجار معه".

وتابعَتْ ذكرَ حقائقَ مريرةٍ. حاولتُ الدفاعَ عن نفسي فقلتُ: "نعم، هذا صحيح. لكن من الصحيح كذلك أني قلت لك في إحدى المرات: أفضِّلُ أن أرى تلك المشاهدَ على أن أتْرُكَ في البيت وحيدة طوال الليل".

بدا أنها تفكِّر، ثم قالت: "لا تقلقي، فمن الآن وصاعداً، لن يكون هناك أيةُ مشاهدَ من هذا النوع. فلقد توصَّلتُ أخيراً إلى قناعةٍ أن "رودولفو" لا يحبُّني وقد توصَّلت إلى قرارٍ أخيرٍ".

تطلَّعت كلُّ واحدةٍ منا في وجه الأخرى. أثارَتْ فضولي فسألتُها والقلقُ يعتريني: "وما هذا القرار؟". وحَسَبَ اللعبة المبرمجة أجابَتْ بحكمةٍ: "لقد قرَّرْتُ أن أنتحرَ. سأذهبُ الآن إلى الحَمَّام، وسآخذُ زجاجة الحبوب المنوِّمة الصغيرة وأبتلعُهَا كلَّها".

صرختُ وقد انتابني فزعٌ شديدٌ من نظراتِهَا المهدِّدة: "لا، يا أمي ... لا تفعلي ذلك ... لا تتركيني وحدي".
ـ إني لا أريد أن أفعلَها، ولكني سأفعلُها.

وعلى الفور، نـــهضت مـــن علـــى كرســـيِّ الفوتيـــل، وهرعت إلى الحمام. تبعتُهَا رأيتُهَا تحرِّكُ كرســـيّاً، وتضعـــه تحتَ علبة الأدوية. صعدَتْ فوقَهُ، وأمســـكت بزجاجـــةٍ مـــن ملح الحامض الـــبربتوري. نزلَـــتْ عـــن الكرســـي. فتحَـــتْ صنبـــوراً ومـــلأتْ كأســـاً مـــن المـــاء، ثـــم أفرغَـــتْ فيـــه محتوياتِ الزجاجـــةِ وقـــالت: "بَـــدَأَتِ الآنَ اللعبـــةُ تتغـــيَّرُ. عودي الآنَ كما أنتِ، وســـأعود كمـــا أنـــا. ولنلعـــب لعبـــة حقيقية. هيا يجب أن تجرعي الكأس".

قالت ذلك بهدوءٍ وبشكلٍ مباشرٍ وناولتني الكأسَ.

سعيدة

أحمر، أحمر، أحمر

ياله من يومٍ خريفيٍّ رائعٍ من أيـــام "رومـــا". خرجْــتُ من المنزل في صبيحـــةِ ذلــك اليـــوم، وبــدا لـــي الشـــارع المحفوف بالأشجـــار مزدانـــاً بـــالأحمر والأصفـــر. أصفـــر مـــن الأوراق المبعــثرة فــوق أرض الشـــارع الإســـفلتية، وأحمر بسبب الأوراق التي ما زالت معلّقة علـــى الأشجـــار، ومن ورائها بدت السماءُ الزرقـــاءُ. وكـــانت أشعّـــةُ الشمـــس الدافئة المتلألئة تُشِعُّ فـــوقَ تلــك الأوراق. وفجـــأةً شعــرْتُ بالسعادةِ تغمرني. نعم السعادة لأني جميلـــة، ولأنـــي شابـــة، ولأني أتمتّع بصحَّةٍ جيِّـــدةٍ، ولأنـــي كنـــتُ زوجـــة مـــهندسٍ مدنيٍّ مرموقٍ ومشهورٍ جـــداً. كنـــتُ ســـعيدةً بحيـــث أنـــي عندما بدأتُ أقودُ سيارتي، ورحْتُ أنتقـــلُ مـــن شـــارعٍ إلـــى آخرَ، خارج المدينة بدأت أدندنُ أغنيةً.

ولكني لُذْتُ بالصمت بَغْتَةً، وشعرت بقلبي يغوص فـــي حنايا صدري، عندما لاحت لي لافتةٌ عند مدخل شارعٍ ريفـــيٍّ ضيِّقٍ مكتوبٌ عليها : "فيلا ميموزا ــ دار رعاية".

شعرت أني مَيْتَةٌ أكثرَ مني حَيَّةً. ركنْـــتُ الســـيارةَ فـــي الفسحةِ أمام العيادة التي بدت كأنها فنـــدقٌ عـــاديٌّ عصـــريٌّ، برواقِهِ الناتئ، وأبوابه الزجاجية، وصفوف النوافذ الممتدة على الطابقين.

إلا أن الشيءَ الذي أثار فزعي، هو تلك النظرة المداهنة. لقد كان من المفـــترض أن أجـــد مشفًـــى عقليّـــاً حقيقيـــاً، ذا

سعيدة

أحمر، أحمر، أحمر

يالله من يومٍ خريفيٍّ رائعٍ من أيـــام "رومـــا". خرجْـتُ من المنزل في صبيحـــةِ ذلــك اليــوم، وبــدا لـــي الشـــارع المحفوف بالأشجـــار مزدانـــاً بـــالأحمر والأصفـــر. أصفـــر مـــن الأوراق المبعـــثرة فـــوق أرض الشـــارع الإســـفلتية، وأحمر بسبب الأوراق التي ما زالت معلّقة علـــى الأشجـــار، ومن ورائها بدت السماءُ الزرقـــاءُ. وكـــانت أشعّـــةُ الشمـــس الدافئة المتلألئة تُشِعُّ فـــوقَ تلـــك الأوراق. وفجـــأةً شعـــرْتُ بالسعادةِ تغمرني. نعم السعادة لأني جميلـــة، ولأنـــي شابـــة، ولأني أتمتَّع بصحَّةٍ جيِّـــدةٍ، ولأنـــي كنـــتُ زوجـــة مـــهندسٍ مدنيٍّ مرموقٍ ومشهورٍ جـــداً. كنـــتُ ســـعيدةً بحيـــث أنـــي عندما بدأتُ أقودُ سيارتي، ورحْتُ أنتقـــلُ مـــن شـــارعٍ إلـــى آخرَ، خارج المدينة بدأت أدندنُ أغنيةً.

ولكني لُذْتُ بالصمت بَغْتَةً، وشعرت بقلبي يغوص فـــي حنايا صدري، عندما لاحت لي لافتةٌ عند مدخل شارعٍ ريفـــيٍّ ضيِّقٍ مكتوبٌ عليها : "فيلا ميموزا ــ دار رعاية".

شعرت أني مَيْتَةٌ أكثرَ مني حَيَّةً. ركنْـــتُ الســـيارةَ فـــي الفسحةِ أمام العيادة التي بدت كأنها فنـــدقٌ عـــاديٌّ عصـــريٌّ، برواقِهِ الناتئ، وأبوابه الزجاجية، وصفوف النوافذ الممتدة على الطابقين.

إلا أن الشيءَ الذي أثار فزعي، هو تلك النظرة المداهنة. لقد كان من المفـــترض أن أجـــد مشفًـــى عقليّـــاً حقيقيـــاً، ذا

قضبان حديدية على النوافذ، وممرضين وممرضات يرتـــدون صداري بيضاء، أي أن يبدو كأنه سجن. دلفت إلـــى الـــرواق كأني أدخل إلى بهو أحد الفنادق. وفي الزوايا كـــانت تجلـــس مجموعات من الناس على كراسٍ أو أرائكَ، وهـــم ســـاهمون واجمون لا يتكلمون أبداً. وتساءلت في قــــرارة نفســـي عـــن سبب عدم تحدُّثهم بعضهم مع بعض. توجَّـــهت نحـــو طاولـــة البواب وسألته بصوتٍ خائرٍ عن "تانيا".

وبعد أن أجرى مكالمة هاتفيـــة قصـــيرةً قـــال لـــي إن صديقتي تنتظرنـــــي فـــي الغرفـــة رقـــم 14، فـــي الطـــابق الأول. فتوجهت نحو المصعد.

لا شكَّ أنه كان للمكـــان أثـــرٌ كبـــيرٌ علـــيَّ. وعندمـــا بدأ المصعد يرتفع، اقتربت من المرآة ومددت لساني. يـــا لـــه من لسان شنيع بشـــع، كبـــير، أحمـــر ومدبـــب. لـــم أكـــن أتصور أن لي لســـاناً كـــهذا. بـــدأت أرســـم علـــى وجـــهي تعابيرَ مضحكةً غريبةً. ثم سألت نفسي بصوت عـــالٍ: "مَـــنْ أنتِ؟". توقَّفَ المصعد وفُتِحَتْ الأبـــواب. خرجـــت ومشيـــت في الممر.

وصلت إلى باب الغرفة رقم 14. قرعت الباب وسمعت صوت "تانيا" تقول: "ادخلي". دلفتُ إلى الغرفة. كان الأثـــاث من خشب الساج على النموذج السويدي.

كـــانت النوافـــذُ مغلقـــةً، والمصبـــاح علـــى الطاولـــة الصغيرة بجانب السرير مضـــيء. كـــانت "تانيـــا" مســـتلقية على السرير بشكل عرضاني ولكن مـــا أن وضعـــت قدمـــي داخـــل الغرفـــة، حتـــى وَثَبَـــتْ واقفـــةً وأســـرعت ودفعـــت الطاولة ووضعتها وراء البـــاب. بـــدأ قلبـــي يـــدقُّ بســـرعة فسألتها: "لماذا تغلقين البـــابَ؟"، فأجـــابت: "لأنـــه لا يوجـــد مفتاحٌ. هل تفهمين؟ لا يوجد مفتاحٌ".

رنوت إليها. ألقت بنفسها على السرير. كانت سمراء، طويلة، لدنة ممتلئة الجسم .ولها وجه أشبه بوجه الدمية، وعينان بيضاويتان حلوتان، وفم جميل أيضاً. لم تتغيَّر كثيراً، سوى شحوبها، وتلك النظرة المتسائلة التي بهتت وأصبحت ماكرةً. شعرت بالإثارة. وما أن جلستُ على السرير حتى قلت: "لا بد أنك تمزحين؟ هل صحيح أنه لا يوجد مفتاح؟".

ــ نعم، ويمكن لأي إنسانٍ أن يدخل.

ــ و ... هل يدخلون؟.

هزَّت كتفيها وقالت: "نعم يدخلون تحت ذرائعَ مختلفة. لكن لا تجعليني أقول ما لا أريد أن أقوله.

ــ ذرائع؟ إذن فهم يدخلون لــ ... أسباب أخرى.

ــ طبعاً، كلهم: أطباء، ممرضون، نادلون...

ــ وأنتِ؟

ــ أدافع عن نفسي بقَدْرِ ما أستطيع. في الليلة الماضية، رميت جهاز التلفزيون على رأس نادلٍ أراد أن يَدْخُلَ بحجة إحضار زجاجة مياه معدنية لم أكن قد طلبتها.

حرّكت عينيها بطريقة غريبة، وتابعتُ حركة عينيها بقلقٍ متزايد. وبصوتٍ خفيضٍ سألتها: "لكن قولي لي الآن، لماذا فعلتِ ذلك؟".

ــ فعلتُ ماذا؟

ــ لماذا تناولت ملح الحامض البربتوري؟

ــ لأني لم أكن أرغب الاستمرار في العيش في عالم مثل هذا العالم.

لم يسعني إلا أن أوافق على ما قالتهُ. ثم ما لبثتُ أن قلت بسرعةٍ محمومةٍ : "صحيح، كيف يمكن للمرء أن يعيش

في عالم كهذا؟".

ـ هذا ما أتساءله أيضاً.

وفجأة قُرِعَ الباب. ازدادت "تانيا" شحوباً فدمدمت: "ها هم قد جاؤوا".

ـ من هم؟

ـ زيارة الطبيب.

ومن خارج الباب سمعنا صوت رجل وهو يسأل بصوتٍ عالٍ: "هل يمكنني الدخول؟" فأجابت "تانيا" على الفور وبحماس: "طبعاً لا، لا يمكنك". ولكن الصوتَ الذي كان ناعماً ولكن بلهجةٍ آمرةٍ قال: "طبعاً لا يمكنك" هذه للآخرين، أما لي: "فيمكنك الدخول". وفي الوقت نفسه تحرّك مقبض الباب، دفعه أحدُهُمْ. وَثَبَتْ "تانيا" على قدميها، وذهبت ووقفت أمام الطاولة وحاولت دفعها بجسمها. وشيئاً فشيئاً فُتِحَ البابُ قليلاً، ثم، عَبْرَ الفرجة، دَلَفَ الطبيب والممرضة إلى الغرفة.

كان الطبيبُ رياضيَّ الجسم، مربوعَ القامةِ، أسمرَ الوجهِ، صارمَ النظرةِ، حليقَ الشعر، عيناه بنيتان داكنتان، ذو أنفٍ قصيرٍ، وشاربٍ أسودَ كثٍّ، وكان يرتدي صدريةً بيضاءَ؛ إلاّ أني تخيَّلته يرتدي سترةً من المخمل وبنطالاً من قماش المتني وحذاءً طويلَ الساق من نوع "ويلينغتون"، وإلى جانبه كلب وقد علَّقَ على كتفه باروده ذات فوهتين. أما الممرضة، فكانت شقراء، نحيلة، ذات وجه مستطيل. وعندما رأتهما "تانيا"، أبْدَتْ امتعاضاً وركضت، ثم ألقت بنفسها على السرير ثانية. مدَّ الطبيبُ يدَهُ القويةَ الغليظةَ، المكسوَّةَ بالشعر وقال: "هيا ... هيا ... لا تغضبي مني ... هيا لنتصافح مثلَ صديقين حميمين".

أذْعَنَتْ "تانيا" ورفعت يدها ببطءٍ شديـدٍ وقـد اعتراهـا الخوفُ، فأخذها الطبيب بشهامةٍ وقبَّلها. قلت لنفسي إنه لو كنت مكان "تانيا" لقبَّلتُ أنا يدَ الطبيب. قدَّمْتُ نفسي بصوتٍ متـهدِّج وقلت: "اسمي "أليونورا". إني صديقة "تانيا". كيف حال "تانيا" الآن يا دكتور؟".

ـ إنها آخذةٌ في التحسن. وقريباً ستعود إلى البيت. ولكن إذا تناولت حبتها الآن فسوف نرسلها إلى البيت قبل يومٍ مـن الموعد المحدد.

خلال ذلك، أشار للممرضة فتقدَّمت على الفـور وهـي تمسك بيدٍ كأساً من الماء، وباليد الأخرى حبةً بيضاءَ كبـيرةً. قالت "تانيا" بتصميمٍ: "لن آخذ أية حبة".

ـ هيا هيا...

ـ لا ... عندما أقول لا فأنا أعني ما أقول.

أشار الطبيب إلى الممرضة. مَـدَّ يـدَهُ وأمسـك وجـه "تانيا" عند فكِّها بـإصبعين فقـط. اسـتكانت تانيـا وفتحـت فمها، وارتسمت على وجهها تعابير غريبـة. دفـع الطبيـب الحبة في فمها ودفـق قليـلاً مـن المـاء. ازدرتـها تانيـا، ورأيت الحركة التشنجية لحنجرتـها وهـي تبتلعـها. أرخـى الطبيب قبضته. ألقـت تانيـا نفسـها علىالسـرير، ودفنـت وجهها في الوسادة. وأخذ الطبيـب يمسِّـد رأسـها بطريقـةٍ أبويةٍ متعاطفةٍ. ثم استدار نحوي وقـال: "إن صديقتـك علـى ما يرام وستخرج قريباً".

ما أن أغلق الباب حتى رميْـتُ بنفسـي علـى "تانيـا" وقلت لها وقد انتـابني شـيء مـن القلـق: "لـديَّ فكـرة، فالطبيب يقول إنك على ما يـرام. إذن لمـاذا تبقيـن هنـا؟ هاهي مفاتيح سيارتي. تظـاهري بـأنك إحـدى الزائـرات. غادري الدار. اركبي السـيارة وتوجَّـهي قبـل كـل شـيء

إلى بيتي لتخبري زوجي. قولي له إني متوعكة وقد طلبْتُ من الطبيب أن أبقى في المستشفى، وأني حجزت غرفةً، وأنه يجب أن يأتي ويراني. لنقل إني سأبقى أربعة أيامٍ أو خمسة أيام. أما أنتِ، فاتركي السيارةَ عند زوجي وعودي إلى بيتكِ كأن شيئاً لم يكن".

لو كنْتَ قد رأيتَ "تانيا" عندئذٍ. فقد وَثَبَتْ من فوق السرير فجأة وقالت: "موافقة. لكن يجب عليَّ أن أحضر حقيبتي".

ــ لا تعبئي بحقيبتكِ. سأعمل على إرسال أغراضك غداً لأني سأبقى في غرفتك. اذهبي أنتِ وسأحلُّ مكانَكِ.

لم تَبْسْ "تانيا" بشيءٍ. كانت قد غمرتْهَا السعادةُ والإثارةُ وقالت: "إذن سأذهب وأرتّب نفسي قليلاً. وسأكون مستعدةً بعد قليل"، وعلى الفور دخلتْ إلى الحمام من بابٍ آخر.

لقد تمَّ كلُّ شيءٍ بسرعةٍ مذهلةٍ. لم يكن لدي متّسعٌ من الوقت لأفكّر مليّاً في الأمر. ولكن ما أن دخلت "تانيا" إلى الحمام حتى ثُبْتُ إلى رشدي بعد ردّة الفعل تلك. حسنٌ، سآخذ مكان "تانيا".

وفي الليلِ سيأتي الطبيب، وسيفتح فمي بإصبعه القوية ويرغمني على ابتلاع الحبة. وسيأتي إلى هذه الغرفة التي لا يمكن إقفالها، الممرضون والنادلون كذلك، وسيتذرعون بذرائعَ مختلفةٍ وحججٍ شتّى. إن ذلك رائعٌ، ولكن ماذا سيحدث بين "تانيا" وزوجي؟ إذ أنَّ "تانيا" عازبةٌ، وتعيش وحدها. إنها جميلةٌ، ونزواتُها الحسيَّةُ معروفةٌ، وببساطة أكثر، يمكن أن تُقْنِعَ نفسَها أن عليها إجراء تبادل من نوعٍ ما "تأخذين مكاني في

المستشفى، وآخذ مكـــانَكِ فـــي بيتـــك. انتبـــهي يـــا حمقـــاءُ، ماذا تفعلين؟".

لم أتردَّدْ لحظةً واحدةً. ســـمعْتُ "تانيـــا" تدنـــدن أغنيـــة وهي تضع اللمساتِ الأخـــيرةَ علـــى زينتـــها فـــي الحمـــام. مما لا شكَّ فيه، فهي تهدف إلى جعـــل نفســـها أكـــثر جمـــالاً وإغراءً من أجل لقاء زوجي. وَثَبْـــتُ مـــن فـــوق الســـرير، وتسلَّلْتُ من الغرفة على رؤوس أصـــابعي. وبعـــد دقيقتيـــن، كنتُ أجلسُ وراءَ مِقوَدِ ســـيارتي، وبســـرعة خرجـــت مـــن فسحة دار الرعاية.

عـــادت الأوراق الحمـــراء علـــى الأشجـــار، والأوراق الصفراء على الإسفلت، وأشعـــة الشمـــس الدافئـــة وهي تتـــلألأ علـــى الأوراق ومـــن ورائـــها بـــدت الســـماء الزرقاء الصافية. وعلـــى حيـــن غِـــرَّةٍ، غمرتنـــي الســـعادةُ. نعم السعادة. لأنني جميلـــةٌ وشابـــةٌ وأتمتَّـــعُ بصحَّـــةٍ جيـــدةٍ، ولأنني زوجة مهندسٍ مدنيٍّ مرموقٍ ومشهورٍ جـــداً، وهـــو لا بدَّ أنه ينتظرني الآن في البيت.

هفوتان

أنا وزوجي لا يُخبئ أحدُنا عن الآخرِ شيئاً. ففي مساء كل يوم، وعند العشاء، يحكي كلٌّ منا للآخر ما حدث له خلال النهار. ونحن لا نفعل ذلك عن قصدٍ، وبشكلٍ مبرمجٍ. فما دام الحب يجمعنا، ولا توجد أسرارٌ نخبئها عن بعضنا بعضاً، فإننا نفعل ذلك بصورة ٍطبيعيةٍ دون وعيٍ منا.

وربما كنا نفعل ذلك للتعويض عن مدة انفصالنا اليومية الناجم عن اختلاف مهنتينا. فأقوم بتعريف زوجي بتفاصيل الحياة التي عشتها في ذلك اليوم وأنا بعيدةٌ عنه، ويفعل هو الشيء نفسه. وما أن ينتهي هذا الحديث حتى تعودَ حياتُنَا كنهرين توأمين يتدفقان ثم ينفصلان لمدة من الزمن، ثم يعودان ويلتقيان ثانية لتصبحَ > حياةً واحدةً.

اليوم، كالعادة، كنا جالسين على الطاولة. كان الجوُّ حاراً، والباب الزجاجيُّ المطلُّ على الحديقة مفتوحاً على مصراعيه: ففي الليل يمكنكَ رؤية الظلام الذي يُخيِّمُ على أحواض الأزهار وقد تناثرت بينها أزهارٌ باهتةٌ نمت في الأيام الأخيرة هذه من شهر أيار. نظر زوجي إلى الأزهار، ثم رنا إلي وقال: "أنت مثل هذه الأزهار".

ـ ماذا تعني؟ .

ــ أعني أنك تزهرين وتصبحين نضرةً عند قدوم الربيع. إنك حقاً "تزهرين" كما يقولون أو "مزهرة"، بل ناضرة كقصة الصبايا "لبروست". فاللون الورديّ يكسو وجنتيك، والنورُ يُشعُّ من عينيك، وشعرك الناعم صقيلٌ برّاقٌ، وأسنانك اللؤلؤيةُ متلألئةٌ، حقاً، يودُّ المرء أن يعرفَ ماذا فعلْتِ حتى أصبحْتِ جميلةً وسعيدةً هكذا؟!!.

ــ يا حبيبي، لم أفعل شيئاً ألبتَّة. لقد كان يوماً عادياً ــ أي أنه لم يحدث شيء جديد أو غير عادي. يومٌ روتيني عادي تماماً لا أكثر ولا أقل. قبل كل شيء ذهبت لزيارة "ديريس" التي فتحت محلها الجديد. عملٌ ناجحٌ للغاية. لا شيءَ أمامك سوى البلاستيك والزجاج والفولاذ.

ما أن دخلت إلى المحل، حتى توجَّهت فوراً نحو "ديريس" وقلت لها إني أشعر بتعاسة شديدة، لأن ربيع السنة فاجأني، وليس عندي سوى ثيابي من العام الماضي.

كنت أشعر بالحرج عندما خرجت من البيت. هل تعرف ماذا فعلت "ديريس"؟ لقد طلبت مني أن أغلقَ عينيَّ. توجهت بي إلى أحد الأبواب ودفعتني داخل إحدى الغرف، ثم طلبت مني أن أفتح عيني ثانية. فعلْتُ ذلك. ونتيجة شعوري نحوها بالامتنان طوّقتُهَا بذراعيَّ وعانقتها.

تصور. لقد كان يوجد على طاولة كبيرة أنواعُ شتى من السراويل القصيرة والطويلة والفضفاضة. إلى جانب ذلك، وفي أرجاء الغرفة، كانت هناك ثيابٌ لا حصر لها معلّقةٌ على مشاجب من كل الأنواع والأشكال. حقاً

كدت أشعر بالدوار، وطلبت من "ديريس" أن تتركني وحدي وبقيت في تلك الغرفة الكبيرة مدة ساعتين. وعندما انتهت الساعتان أعددت ترتيب خزانة الملابس.

بعد أن حللت مشكلة الربيع، شعرتُ بسعادةٍ كبيرةٍ تغمرني، فقد قمتُ بالزيارةِ التي طالما أجّلتُها. ذهبت لزيارة "جورجينا" التي رُزِقتْ بطفلٍ منذ شهر تقريباً. كانت وسط الحفاضات وزجاجات الإرضاع. تجاذبنا أطرافَ الحديث، ثم غادرتها لأن موعدَ إرضاع طفلها قد حان، ونظراً لأن الساعة كانت السابعة، كان أمامي ما لا يقلُّ عن ساعةٍ للتَّسكُّع. خطر لي أن أزورَ معرضاً فنياً في شارع "دل بابينو": توجَّهتُ إلى هناك، ووجدت معرضاً شائقاً جداً. فقد كانت تعرض فيه لوحات رسام لا أعرفه إلا من شكله. لكنني لا أذكر اسمَهُ الآن، يجب أن تساعدني ـ شابٌّ طويل أسمر، ذو شعر طويل أشعث، وسالفتان طويلتان. في عينيه نظرةٌ مترددةٌ. رحت أتفرج على اللوحات لوحة لوحة.

وفجأة وصل الرسام ورحنا نتحدث. وبعد حديثٍ متنوِّعٍ قال إنه يود أن يهديني إحدى لوحاته. وطلب مني أن آتي بنفسي وأختار لوحةً من مرسمه الذي يقع عند ناصية شارع "مرغريتا". وافقت لأنه كان لا يزال أمامي متَّسعٌ من الوقت، ولم أرغب في العودة إلى البيت. وهكذا توجهنا إلى مرسمه في شارع "مرغريتا". صعدنا عدة درجات، وعبرنا فناء صغيراً. أراني مجموعة من الرسوم. وبالإضافة إلى هذا وذاك، مارسنا الحبَّ. وبعد أن مارسنا الحبَّ، كتب على اللوحة التي اخترتها كلمة إهداء رائعة حقاً: "إلى "دانيا"، أجمل الجميلات، أهدي

أجمل لوحاتي"، ثم عاد معي إلى المعرض.

وبغتة، تذكرت أنه كانت توجد حفلة كوكتيل عند "لورينزا" في "جانيكولام". وتصادف أن الرسام (الذي لا أذكر اسمه، لكنه مكتوب أسفل اللوحة) ذاهب إلى ذلك الشارع أيضاً، لذلك كان من الطبيعي أن أعرضَ عليه أن أصحبه بسيارتي. ذهبنا إلى "جانيكولام" ــ يا له من جهد ــ حيث كانت حركة المرور كثيفةً بشكل غير معقول، واستغرق مشوارنا ساعة كاملة. عندما وصلنا، كان هناك حشد كبير من الناس فأضعته. ماذا كان عليَّ أن أفعل؟ رحت أبحث عنه، ثم كففت عن ذلك وقلت في نفسي إنه لا بد أن يجد أحداً يوصله.

لم أعرف ماذا أفعل، فرحت أتحدث مع "بيترو" إنه "بيتر" ألا تعرفه؟ كان النُّدلُ يمرون وهم يحملون الصواني. في البداية، احتسيت كأساً واحداً، ثم كأساً ثانياً وثالثاً. وفي النهاية، لن تصدِّقَ ذلك، أصبحت ثملة، ولا أعرف حقاً كيف قُدْتُ السيارةَ وعدت أدراجي. لكن انتظر، أريد أن أريكَ اللوحة. أريد أن أعرف رأيكَ بها. انتظر".

نهضْتُ وأنا مُفعمَةٌ بالإثارة. دلفت إلى غرفةِ النوم بسرعة. كانت اللوحةُ ملفوفةً وملقاةً على السرير إلى جانب حقيبة يدي ومفاتيح السيارة. رفعت اللوحة ورحت أنزع الشريطَ المطاطيَّ الملفوفَ حولها. توقفت فجأة تسمَّرت في مكاني. جحظت عيناي عندما أدركت أنني مدفوعةٌ بالحميمةِ التي تجمعنا، وشعورٍ بالغبطة، ولعلي كذلك، لأني كنت ثملة بعد أن احتسيت الكؤوس الثلاثة أو الأربعة عند "لورينزا"، أخبرْتُ زوجي صراحة

أني لم أكن مخلصة له، بل أخبرته بكل بساطةٍ أنني قمْتُ بخيانتِهِ.

وفجأة تذكَّرْتُ أني رأيت ذات يوم في باحة المزرعة بالريف خنزيرة كانت تلتهم كلَّ شيء تصادفه، وقد ألصقت خرطومَهَا في الأرض. لقد التهمَتْ خلالَ جولتها الدؤوبة جِذْعَ ملفوفٍ ثم تفاحة ثم صوصاً حديث الفقس وكان يصأصئ قبل أن يتلاشى في فمها، ثم تفاحةً أخرى، وجِذْعَ ملفوفٍ آخرَ، وقشرةَ بطيخةٍ، وتفاحةً أخرى.

لقد فعلْتُ أنا ما فعلتْهُ تلك الخنزيرة تماماً. فقد ذكرْتُ شيئاً غير ذي أهميةٍ، ثم شيئاً آخرَ، ثم قلت: إني مارسْتُ الحبَّ مع رسَّامٍ، ثم أضفْتُ أشياءَ تافهة. قلت كلَّ ذلك دون تمييز. لقد جعلْتُ جميعَ الأشياء على مستوًى واحدٍ، مستوى الأرض، وأنا في حالةٍ من النشوة وعدم التمييز وفي غمرة المودة الحميمية. لقد أعادت لي هذه الأفكار، ولسبب ما شجاعتي. هززت رأسي. رفعت اللوحة وعدتُ إلى غرفة الطعام.

كان زوجي قد أشعلَ لفافةً خلال غيابي. كان يدخِّن وعيناه مطرقتان. لم يكن من المهمِّ فهمَ ما كان يجول في خاطره. بقيت واقفة وفتحْتُ اللوحةَ وأريتها له وسألته: "ما رأيك؟"، فقال: "لا بأس بها".

جلسْتُ ثانية. جاءت الخادمة وهي تحمل صينية وقدَّمَتْ لنا القهوةَ. ثم بطريقةٍ طبيعيةٍ سألته: "وأنت ... ماذا فعلت اليوم؟"، أجاب على الفور، كأنه كان ينتظر هذا السؤال،: "كان يوماً شائقاً ممتعاً، وأيضاً طبيعياً جداً. ذهبتُ إلى المكتب، وعملتُ طولَ النهار. وفي المساء، ذهب الجميع، وبقيت وحدي. وبما أن سكرتيرتي "فلورا"، بقيَتْ

في المكتب أيضاً، انتهزنا الفرصة ومارسنا الحبَّ. ثم أتممْتُ أشياءَ صغيرةً. وعندما همَمْتُ بالمغادرة، احزري من هتف لي؟ "توماسو". سألني فيما إذا كنا مشغولين هذا المساء، فقلتُ له إنه من الممكن أن نتقابل، بل وربما نذهب إلى السينما. هل أخطأتُ في ذلك؟". بغباءٍ شديدٍ اعتراني الفزعُ. تأتأتُ قائلةً: "لقد أخطأتَ خطأً فاحشاً".

ـ لماذا؟ لأني ضربت موعداً مع "توماسو"؟ لا تقلقي من أجل ذلك ... سأهتف له الآن وأقول له إننا لا نستطيع الذهاب.

ـ لا، لا ... بل لأنك خنتني مع تلك السكرتيرة السوقيَّة.

تطلَّع الواحد منا إلى الآخر للحظة، ثم انفجر زوجي ضاحكاً وقال: "اصدقيني الآن ... هل صدَّقتِ كلَّ ما قلتُهُ لكِ؟".

ـ صدَّقتُ ماذا؟.

ـ أني خنتك مع "فلورا". لكن هذا ليس صحيحاً. فقد غادرَتْ "فلورا" المكتب مع الآخرين، ولن أحلمَ أبداً أن أمارسَ الحبَّ معها. لا تقلقي. لم أخنْكِ ولم أكن غيرَ مخلصٍ معكِ أبداً.

ـ أما أنا فقد كنْتُ غيرَ وفيَّةٍ. انزلقت الكلمات دون وعي مني.

ـ متى؟ وأين؟ وكيف؟ ومع من؟.

طرح هذه الأسئلة كلَّها دفعةً واحدةً وهو يرمقني بعينيه. لُذْتُ بالصمت وأنا أحاولُ استجماعَ أفكاري، ثم هُرِعَ لمساعدتي وقال: "لقد حكَيْتِ لي ما جرى لكِ خلال النهار، ولم تذكري فيها أي خيانة. ولكن هذا يعني

أنك لم تكوني وفية قبل اليوم. هيا اذكري لـــي بدقــة متـــى؟ وأين؟ ومع من؟".

وفجأة فهمْتُ. تلك الأسئلةُ التـــي أمطرنـــي بـــها. تلــك النظرةُ التي رمقني بها كانت تعني: "هيا طيبـــي نفســاً. لقــد كنْتِ غيرَ وفيَّةٍ وأنتِ في حالةِ شرودٍ ... وأفضِّـــل أن أنظــر إلى الأمرِ كأنَّ شيئاً لم يحدث. وأنا بـــدوري ســـأتظاهر أنـــي كنت شارداً ولم أسمعْ أو أفـــهمْ شيئـــاً. لكنـــك إذا أصـــرَرْتِ على أنكِ غيرُ وفيَّةٍ، فلن يبقى الأمـــرُ عندئـــذٍ مجـــرد زلـــة لسان، بل سيكون أمراً جدياً. لذا، اقبلي شرودي تمامـــاً كمـــا قبِلْتُ شرودَك. اتفقنا؟".

هززتُ رأسي دون معنى تقريبـــاً وقلـــت: "أنـــا آســـفة، لقد قلتها دون أن أعنيها حقاً. لعلها كانت ناجمة عـــن شعـــور مباغتٍ بالذنب الذي ... الذي جعلك تتصوَّرُ أنك فعلتَ شيئاً لم تفعله في الواقع".

لستُ مثقفة

عندما أصر "توليو" على الهاتف أنه يجب عليَّ أن أقــرأ الكتاب عن حياة "تشي غيفارا". قلت له: "لقــد بذلــتُ جــهداً كبيراً في قراءته، إلا أني لم أتمكَّنْ من ذلك. فأنا لا أجد اهتماماً بالسياسة، ولا بأمريكا اللاتينية ولا بحرب العصابات. فلمــاذا يتعيَّنُ عليَّ أن أقرأه؟". فســألني مــن الطــرف الآخــر مــن الخط: "هل يمكن لي أن أعرف بماذا تهتمين؟".

ـ بمشكلاتي الخاصة.

ـ وما مشكلاتك الخاصة؟.

ـ إن مشكلاتي هي مشكلاتي ولا دخل لأحد بها.

عندها ألقى علي محاضرةً كعهده وقال: "لا يوجد لأحــد مشكلات شخصية، فيما عدا المشكلات التــي تتعلــق بعملــه، بمعنى آخر، المشكلات التي هي ليست مشكلاتٍ حقيقيــة. إن المشكلاتِ الحقيقية هي المشكلات التي لا تكــون ذات صبغــة شخصية، أي المشكلات المتعلقة بــالفن والسياســة والثقافــة والعلوم وهلم جرا ...أما المشكلات المتعلقة بالأشياء التي يهتم بها المرء لشغفه بالأشياء نفسها فيجب أن يــهتم بــها دون أن يفكِّرَ بالإفادة منها. إنك لا تهتمين بشيءٍ إلاَّ بنفسك، لذلــك، لا يمكن أن يكونَ لديك مشكلاتٌ".

لسببٍ ما أحسستُ بالإهانة وأجبتُ: "أنــت تتكلــم معــي بهذه الطريقة الدنيئة لأنك طلَبْتَ مني أن أنامَ معك ولــم تفلــحْ في ذلك، إلى اللقــاء". وألقيْــتُ الســماعة. ومــن عــادتي،

عندما أنزعج من أحد أصدقائي الكثر، أن أغلقَ السماعة في وجهه، ولا أقابله ثانية.

بعد هذه المحادثة الهاتفية، استدرتُ ورأيتُ أن أمي ترمقني بعينيها، وهي جالسةٌ على الفوتيل تقرأ الجريدةَ. فأنا وأمي نعيش معاً، ومغرمتان ببعضنا، ونشبه بعضنا كثيراً. والفارق الوحيد هو أن أمي تكبرني بثلاثين عاماً .وفي الواقع، يمكن أن نُعَدَّ أختين، واحدةٌ كليلة واهنةٌ، والأخرى شابةٌ نضرةٌ. افترَّت أمي عن ابتسامة وسألتني: "وما مشكلاتك؟"، فأجبتُهَا: "عندما كنت طفلةً كنت غالباً ما أسمعك وأنت تقولين لأصدقائك على الهاتف: إن مشكلاتي لا تعني أحداً سواي. اغفري لي، لكني أخذت هذا التعبير منك لأنه ينطبق كذلك علي. ما مشكلاتي؟ لا أعرف، لكني أتمتَّعُ بحيويةٍ دافقة، وأود أن أكرِّسَ هذه الحيوية للرجال".

ــ كنت أعاني من المشكلة نفسها أيضاً.

ــ نحن لا نفهم بعضنا بعضاً. أنالا أقول "للرجال" بمعنى ممارسة الحب معهم، بل للرجال، أي الإنسان بشكل عام وعمل أشياءَ طيبةٍ لهم.

وافقت أمي وقد افترَّت شفتاها عن ابتسامةٍ (فالابتسامة لا تفارق شفتيها) وقالت: " لقد كانت مشكلتي، من الناحية الأخرى، كما تقولين الحب. ففي زماني كان الحب شيئاً هاماً جداً".

ــ وهل تمكَّنْتِ من حلِّ هذه المشكلة؟

ــ لا. فقد تزوجت مرتين، وحَظيتُ بالثراء وبوضعٍ اجتماعي مرموق، أما الحب فلا.

ــ لماذا؟.

ــ لا أعرف لماذا. إن كلَّ ما أعرفه هو أن المرءَ يبدأ بمشكلة الحيوية التي كما تقولين يتمنى المرءُ تكريسها

للآخرين. غير أن المرء، عوضاً عن ذلك، لا يوفّقُ في نهاية الأمر إلى حل أي شيء سوى المشكلة العملية. لقد كنت أبحث عن الحب يوماً، ولكني حَظِيْتُ عوضاً عنه بالثراء. إنه ليس خطأ أحدٍ. فالأمورُ تسير على هذا النحو.

اجتاحني فجأةً غضبٌ شديدٌ، وصحْتُ في وجهها: "أمَّا ما يتعلّقُ فيَّ فإنَّ الخطأ يقعُ عليك. لقد أسأتِ تعليمي منذ البداية. فلم يكن يوجد في هذا البيت كتابٌ واحدٌ. فأنا جاهلةٌ لا أعرف شيئاً. والأسوأ من ذلك، لا أجد قدرةً في الاهتمام بأي شيء، فأنا أُمِّيَّةٌ لا حول لي ولا قوة، والخطأ كله يقعُ على عاتقِك".

أجابتني بهدوءٍ تامٍّ والبسمةُ تعلو شفتيها: "في زماني كانت الفتياتُ ينشأنَ ليجدْنَ أزواجاً جيدين. لم تكن الفتياتُ آنئذٍ يتحدَّثْنَ عن دراسة الأشياء وسبر أغوارها. لقد قدَّمْتُ لك الثقافةَ التي كانت مطلوبة في ذلك الوقت".

ازداد غضبي استعاراً وصحت: "لا أريدُ أن أسبرَ أغوارَ الأشياء، إنك غبيةٌ، فأنا أريدُ أن أقومَ بأعمالٍ جيدةٍ للإنسانية. إلا أني لا أستطيع أن أفعل ذلك، لأنك ربيتني بطريقةٍ لم أعد أستطيع معها أن أبدي اهتماماً بأيِّ شيءٍ سوى نفسي". فقالت بغضب: "لا تنعتي أمَّكِ بالغباء".

هززت كتفيَّ واندفعْتُ إلى غرفتي. لبستُ جزمةً طويلة وقفطاناً شرقياً طويلاً. هرعت خارجة وأنا أصرخ: "لن أعودَ لتناولِ الغداءِ أو العشاءِ، بل ربما سأغيب طوالَ الليل. سأراكِ غداً صباحاً". وبينما كنت أقود سيارتي الصغيرة عبر شوارع "روما"، رحت أفكِّرُ فيما قاله لي "توليو" على الهاتف. لا ريبَ أنه قال ذلك بدافعٍ من الانتقام لأنه لم يتمكَّنْ من استمالتيَ لأنامَ معه. كما يعلم الجميع، فإن المثقَّفَ ينتقم من المرأةِ التي ترفضه بنعتها جاهلة، فهذا هو تفوُّقُهُ

الوحيدُ عليها. إلا أنّه من الصحيح كذلك أنه قال أشياء صحيحة تماماً. إذ لم أكن أبدي أيَّ اهتمام في أي شيء، بسبب التربية الخاطئة التي أنشأتني عليها أمي. ومع ذلك ... شعَرْتُ ــ في بعض اللحظات ــ أني كنت أتمتع بنشاطٍ وافرٍ وحيويةٍ رائعةٍ، كما كنت أشعر أني أودُّ أن أوظِّفَ هذا النشاطَ في خدمة البشرية. كيف يمكن تفسير هذا التناقض؟ وفجأة، وبينما كنت أفكِّر بهذه الأمور، أجهشت في البكاء، وأخذتِ الدموعُ تنهمر بغزارةٍ وكأنها أمطار غزيرة تتساقط على لوح من الزجاج. وعلى الرغم من أن اليومَ كان جميلاً، والشمسُ ساطعةً، لم أعد أرى أمامي جيداً بسبب الغباش الذي سبَّبته الدموعُ المترقرقةُ في عيني. وشغَّلْتُ مسَّاحاتِ الزجاج كما لو أن المطر هو الذي أحدث غباشاً، وليست عيني. وفي غمرة ذلك قلتُ بصوتٍ مرتفعٍ: "يا أماه، لماذا لم تجعليني أفهمُ أنَّ المشكلاتِ الحقيقية ليست مشكلاتٍ حقيقيةً عندما كنتُ صغيرةً؟". كما ترون، فإنه على الرغم من أني أغلقت الهاتف في وجه "توليو"، فقد تعلمت درساً جيداً.

قُدْتُ سيارتي على طريق "آبيا"، ووصلت إلى فيلا الممثل ــ المخرج الذي كنت أعمل عنده من حينٍ إلى آخرَ (بالرغم من أني لم أكن بحاجةٍ إلى نقودٍ وذلك لأننا كنا ميسوري الحال) بل كي أشعرَ بالاستقلال فقط. فقد كنت أظهر في بعض المشاهد عاريةً في أفلامِهِ الخلاعيةِ. وكنت في أحيانٍ أخرى أطبعُ له نصوصاً على الآلة الكاتبة (فأنا أحمل شهادةً في الضرب على الآلة الكاتبة والاختزال) وكنت أشعر مع "بوب" ــ وهو إيطالي ويدعى "روبرتو" ــ بالأمان لأني أعرفُ أنه لن يحاولَ دعوتي للنوم معه أبداً، إذ لم تُثِرِ النساءُ اهتمامَهُ قطُّ.

كان الطريقُ يمتدُّ بين صفَّيْن من أزهار الدِّفلى، ثم ينفتح

على مرج واسع من الطراز الإنكليزي المحاط بأشجار السرو والصفصاف. وكان في الوسط حوض سباحة على شكل قلبٍ أزرقَ اللون، وفي طرفه صخرة اصطناعية كأنها شلالٌ حقيقي. وكانت الفيلا المؤلّفةُ من طابق واحد حمراءَ ومن طراز البيوتِ الريفيةِ الرومانيةِ. وأخذ يلوح لي من مسافة بعيدة رجلٌ ذو لحية لم أتمكن من تمييزه جيداً. وما إن اقتربت منه حتى غاصَ قلبي في صدري لسبب لم أعرفه، لقد كان هو "تشي غيفارا" ببيريته، بعينيه الياسمتين، لحيته الشبيهة بلحية المسيح، وقميصه وبنطاله الجينز. ترجّلتُ من السيارة وأنا مرتبكة. فتح "بوب" ذراعيه وقال بصوت مرتفع: "ألست "تشي غيفارا" بعينه؟ سوف أمثّلُ وأصوّرُ فيلماً عن "تشي"، لذلك يجب أن تقرئي كل هذه الكتب لاستخلاص الأفكار الهامة فيها، ثم اكتبي لي تقريراً مؤلّفاً من مئتي صفحة، وسأقوم أنا بعد ذلك بكتابة موضوع منها. وسوف أطلق على الفيلم اسم "تاشاوزو" أي باسم معسكر "تشي". وسوف نصور لقطات الفيلم كله في "أبروزي"، ما رأيكِ في ذلكَ؟".

ثم توجّه على الفور نحو طاولة صغيرة تحت الممر المسقوف، وحمل مجموعة كبيرةً من الكتب بين ذراعيه، وتوجّه إلى سيارتي ووضعها فيها بهدوء. سألته وأنا في حيرة من أمري: "ولكن ما هذا كله؟".

ـ هذه الكتبُ جميعُها تتحدث عن أمريكا اللاتينية.

ـ لا أعرف شيئاً عن أمريكا اللاتينية، أو عن أي شيء آخر. فأنا جاهلة، أمية.

ـ إلى أي مستوى وصلت في دراستك؟.

ـ الثانوية.

ـ هذا أكثر من كافٍ. اقرئي الكتب واستخلصي منها

مئتي صفحة دوِّني فيها جميعَ الوقائع الهامة. الوقائع فقــط... الزمن: شهر. المكافأة: مليون لير. والآن اذهبي لأني مشغول. إلى اللقاء أيتها الحلوة المحظوظة.

عُدْتُ أدراجي إلى البيت وأنا في حالة ذهول تام. وعلى الفور جلست إلى الطاولة. ومن الغريب أن "توليــو"، الــذي أرادني أن أقوم بأشياءَ نتيجة حبي بها، لم يكن له تأثير علـــي. أما "بوب"، الذي أرادني أن أقوم بالشيء نفسه لأكسبَ قدْراً من المال، تمكن من إقناعي وإخضاعي. لكن الذعرَ انتابني لجهلي، إذ لم أكن أعرفُ شيئاً عن أمريكا اللاتينية. غير أنني مـــا أن فتحت أوّلَ كتاب حتى سار كلُّ شيء على نحوٍ غيرِ متوقّعٍ. لقد كان عقلي يعمل كأنه آلةٌ صغيرةٌ ومحكمـــةٌ ونشيطـــةٌ جـداً، لكني لم أكن أعرف ذلك ... وعندما عكفت على العملِ بهمَّـــةٍ ونشـــاطٍ، أدركـــت أن أســـرارَ أمريكـــا اللاتينيـــة السياســـية والاقتصادية والاجتماعية واضحاً كان كلُّ شـــيءٍ معـــداً مـــن الوقائع. لسبب لا يمكن تفسيره، وقد يكون ذلـــك لأن أمريكـــا اللاتينية و"تشي غيفارا" لم يثيرا اهتمامي من قبل.

وهكذا عملت قُرَابَةَ شهرٍ بدَأبٍ مستمر، حيث أكببْتُ على الكتب الثلاثين التي أعطاني إياهـــا "بـــوب"، ورحـــت أطبـــعُ الصفحاتِ بسهولةٍ متزايدةٍ وبفضولٍ أقلَّ. وكنت كلما تقدَّمت في العمل، أصبح هذا العملُ أفضلَ وقلَّ اهتمـــامي بـــه. وعندمـــا أتممْتُ جميعَ الوقائع، عدتُ بالسيارةِ إلى الفيلا حيـــث وجـــدْتُ بواباتِ المدخل وجميعَ الأبواب مفتوحةً، إلا أنَّه لم يكن يوجـــد أحدٌ في الفيلا. كانت الشمسُ لاهبةً، وصمتٌ ثقيلٌ يرين علـــى المكان. وعلى سطح مياه حـــوض الســـباحة كـــانت تطفـــو ضفدعةٌ مطاطيةٌ كبيرةٌ خضراءُ وصفـــراءُ اللـــون. وضعـــت النصَّ على الطاولة في مكان مرئيٍ في غرفة الجلـــوس، ثـــم خلعت ثيابي وسبحت في الحوض عاريةً تمامـــاً. ثـــم عـــدت

وارتديت ثيابي وقفلت عائدةً إلى البيت.

بعد مضيٍّ أسبوعٍ تلقيت باقة من الورود ومعها مظروفٌ داخله شيكٌ بمبلغ مليون لير وقصاصةٌ كُتِبَ عليها كلمةُ: "رائع". عندها حملت الكتبَ الثلاثين التي تبحث في أمريكا اللاتينية بيدٍ واحدةٍ وفتحْتُ الخزانةَ وألقيتُهَا فيها بشكلٍ فوضويٍّ. وفي اللحظة نفسها بدا لي أنَّ ريحاً هَبَّتْ على ذاكرتي وجرفت كلَّ شيء كنت قد تعلمته خلال ذلك الشهر الذي كتبت خلاله المئتي صفحة "لبوب". وهكذا عدتُ إلى سابق عهدي: جاهلةٌ، وأميةٌ. لقد نسيتُ كلَّ شيءٍ في لحظة واحدة. جلست أمام الآلة الكاتبة، وضعت وجهي بين يديَّ وأجهشت في البكاء.

مجردة من الغريزة

لم أتزوَّج في حياتي، لأني كنت أدرك منذ مدةٍ مبكّرة جداً أنه من الأفضل للأشخاص الذين يفكرون دائماً بالحب من أمثالي، الابتعاد عن الزواج، فبدل أن أتزوج كما تفعلُ الكثيرُ من النساء، وكي لا أشغل بالي بالتفكير بالحب، قررْتُ أن أعملَ مضيفةً جويَّةً كي يتاحَ لي العيش بصورة مستقلة، وأن أفكّرَ بالحب كما يحلو لي دون أن أكون مسؤولةً تجاه أحد. وكان الخطُّ الجويُّ الذي أعمل عليه متجهاً إلى الشرق الأوسط.

وكنت أصرف جُلَّ اهتمامي إلى عملي، وأؤدّي جميعَ الأعمال الروتينية التي تؤديها أية مضيفة والبسمةُ تعلو وجهي: تقديم الوجبات، التأكُّد من أن المسافرين يربطون أحزمتهم، وتقديم المساعدة للأمهات اللاتي تعترضهن أية مشكلات.

وكنت أفكر دائماً بالحبِّ، سواء الحب الذي عشته أو الحب الذي سيدهمني مستقبلاً. بَيْدَ أن هذا لا يعني أني امرأةٌ ذات ذوق مختلط وغير محدد. بل على العكس، فأنا أكاد أكون مكبوتةً تماماً. والسبب الذي يدعوني للتفكير بالحب باستمرار هو أني نادراً ما أَحْبَبْتُ أو أُحْبِبْتُ. وبالرغم من أني أصبحت الآن في الثلاثين من العمر، فلم يكن لي سوى علاقتين فقط. وللتعويض عن ذلك لم أكف يوماً عن التفكير في الحب.

في بعض الأحيان كنت أعزو عدم نمو غريزتي في الحب إلى العمل الذي اخترته. ويمكن أن أكون مخطئةً. إلاّ أنني كنت أكثرَ ثقة بنفسي، قبل أن أصبح مضيفة. فقد جعلني

عملي مضيفةً إنساناً لا جذورَ له. إنساناً لم يعد يعرف أين وطنه، ونادراً ما يتحدَّث بلغته، بل يمضي معظم أوقاته محلّقاً فوق السحاب، في أعالي السماء. أما إذا أردنا أن نُحِبَّ، ونُحَبَّ، فيجب أن يكون لنا جذور. فالمرأة الريفية المتعلقة ببيتها ومزرعتها وحقلها تُحِبُّ وتُحَبُّ، شأنها شأن صاحبة المتجر التي تقضي وقتها بين منزلها ومتجرها. ــ أما في السماء، فكيف يمكنُ للمرء أن يصبحَ له جذورٌ وهو في السماء؟ ــ فلا يمكن لأحد أن يفعل ذلك سوى القديسين، الذين هم على النقيضِ منا، نحن الآثمين، لكن كم من قديسٍ يوجد في هذا العالم؟.

في إحدى الليالي كان علينا أن نمضي الليلةَ في بيروت. وبسبب تفكيري الدائم بالحب، قبلت دعوى للعشاء وجَّهها إليَّ أحدُ الطيارين في مجموعتي يدعى "ماركو". وكنت قد قبلت الدعوة لأنه كان يلحُّ في دعوته منذ مدة طويلة. وقبلت الدعوة كي أكتشفَ فيما إذا كان يتمتَّعُ بالصفات التي تجعله كما يقولون: "الرجل الذي دخل حياتي". وسأصف لكم الآن "ماركو"، لا لسبب إلا لأنه سيكونُ الرجلَ المثاليَّ عندي. فقد كان ماركو وسيماً، ويتمتع بقوة خارقة. كان رياضياً ودمثاً وفي الوقت نفسه فظاً قاسياً وكئيباً. وعلى الرغم من كونه قويَّ البنية، فقد كان خجولاً. إذ كان يتلعثم ويتأتئ في اللحظات الحرجة، وهو شيءٌ أحبُّه لأنه يمنحني شعوراً باللطافة.

ذهبنا إلى مطعم من طراز شرقي، حيث يرتدي النادلون لباساً عربياً، كما كان مؤثثاً بأسلوب شرقي. جلسنا في فناء صغير تتوسطه بركةٌ من المرمر وفيها نافورة ماء. طلبنا الأطباق الشرقية المعروفة، ثم بدأنا نواجه أحدنا الآخر. لقد كان موقفي واضحاً، فقد أتيتُ إلى هذا المكان لأسمع منه أنه يحبُّني، بل لعله يودُّ الزواج مني. ولكن لأن الأمر كان

واضحاً إلى هذه الدرجة، اعتراني شعورٌ بالفزع. فنظراً لكوني مجرَّدةً من الغريزة الغرامية، ونظراً لأني أمتلك جسداً جميلاً، كنت أتظاهر باستمرار، في مثل هذه المناسبات بالطرش، وأرفض التجاوب بأي شكل كان، ونتيجة استيائي الشديد من فكرة أن "ماركو" سوف يكشف عن سريرته ويوجه لي ما ندعوه بالسؤال الرئيسي: "هل أحبه حقاً أم لا؟". رنوت إليه، وأدركت أن سيماءَ الحيرةِ باديةٌ على وجهه، الأمر الذي حول وجهي الجميل "وجه المضيفة" إلى قناع كرنفالي. وكنت كلما أنْعَمْتُ النظرَ إليه قلَّتْ درجةُ ثقتي بنفسي. قُلْتُ في سريرتي: "نعم، إنه هو الرجل الذي أبحث عنه، لا ريبَ في ذلك". غير أني قُلتُ من الناحية الأخرى: " لا .. لا ... إنه ليس هو ذاك الرجل الذي أبحث عنه، إنه ليس الرجلَ المناسبَ، حتى أني لن أسمحَ لنفسي بالتحدُّث عن ذلك، ولا بد أن "ماركو" قد لاحظ شيئاً من ذلك، فسألني بصوتٍ هامسٍ: "ماذا في الأمر؟ هل توجد مشكلة؟".

ــ لا ... لا توجد مشكلة. لكن دعنا نتحدث ولا نبقى صامتين هكذا.

ــ لديَّ فعلاً شيءٌ أودُّ أن أقوله لك.

وفجأة انتابني الذعر "شيء واحد فقط؟ لكن لنتحدث عن أشياء كثيرة. حدثني عن مسقط رأسك. أين ولدت وكل شيء عن أسرتك".

وافقَ على مضض، وانتابني انزعاجٌ لأني تصوَّرت، لسببٍ ما، أنه وُلِدَ في قريةٍ صغيرةٍ، إلا أنه قال إنه ولد في "ميلانو" وأخذ يتحدَّث عنها بطريقة مملة لا لون فيها. وباختصار شديد، أخذ يحاول إفهامي، كأي رجل نموذجي يتفوه بكلمات قليلة، بأنه مغرمٌ بي. ولإثبات ذلك، لم يجد وسيلة أفضل من التحديق بي بنظراتٍ مُفْعَمَةٍ بكآبته العنيدة

وغبارته. وكان الغيظُ يمزقني وأنا أتعرض لنظراته المتواصلة. أحضر النادل حساءً فيه بلح البحر. حاولت فتحَ واحدة كانت لا تزال مغلقة. لم أفلحْ في مسعاي وانكسر إظفري. انفجرتُ غاضبة وقلت له: "هل ترى هذه الصَّدَفَة؟ لقد جعلْتَنِي هذا المساءَ مثلَ هذهِ الصَّدَفَةِ. مغلقةً بإحكامٍ مثلها. عنيدةً مثلها. منيعةً مثلها".

ـ لكن حقاً، أنا...

ـ حقاً ... لقد دعوتني هذا المساء لتقول لي: إنك تحبني، لا تقل: لا .. فأنا أعرف. وكي تُفْهِمَنِي ذلك صوَّبْتَ إليَّ نظراتِك التي تشبه نظرات كلب ملسوع بالسياط. غير أن ذلك لن يجدي نفعاً.

ـ ولكن ما الشيءُ الذي يجدي نفعاً؟.

ـ طريقتك هذه في إفهام المرأة أنك تحبها .

ـ أخبريني إذن ... كيف يجب عليَّ أن أسلكَ؟.

أطلقتُ ضحكةً قصيرةً نزقةً.ولسبب لا أعرف كنهه، قرَّرْتُ أن أعلِّمَهُ الشيءَ الذي لم أكن أعرف عنه شيئاً وقلت له: "دون نظراتٍ، دون ابتساماتٍ، دون ملامسةِ اليد، دون غزلٍ، ومن يغازل في أيامنا هذه ؟ إنَّ ما يجب أن تهدفَ إليه هو أن تمارسَ الحبَّ بطريقةٍ حسابيةٍ.

بدا مندهشاً وراح يكرر: "ممارسة الحب بطريقة حسابية؟ ولكن كيف؟"، فأجبته: "إنه ذلك الحب الذي لا يمرُّ في مرحلة النظراتِ والمجاملاتِ والابتساماتِ وما شابه ذلك. إنه مثل تمرينٍ حسابيٍّ: أحبُّ هذه المرأةَ. إنها تحبني . يَتِمُّ جمعَ هذين الحبَّيْنِ للوصول إلى النتائج، أي ممارسة ذلك الشيء الذي يجب عمله".

ـ أي شيء؟.

ـ الشيء ....

وَجَم ساكناً. لا ريبَ أنَّه وجدَ موضوعَ الحـــبِّ بطريقـــةٍ حسابيةٍ أمراً عسيرَ الفهم. أنهينا طعامنا دون أن نتحدَّثَ تقريباً. ثم قلت له بفظاظة: "إني متعبة". دفع الحساب وعدنا أدراجنـــا والصمت لا يزال يرين علينا، إلى الفندق الذي لم يكـــن يبعـــد عن المطعم. أخذتُ مفتاحَ غرفتي مـــن موظـــف الاســـتقبال، وكانت علاماتُ الحَيْرَةِ باديةً على وجهي، حتـــى إنَّ موظـــف الاستقبال لاحظ تلك الحيرةَ التي شوَّهت معالمَ وجهي.

شعرت أنه يجب أن أضع "مـــاركو" تحـــت الاختبـــار. الاختبار الأخير. فدعوته لمرافقتي إلى غرفتي. في المصعـــــد وقفْتُ وأسنَدْتُ ظهري إلى الحائط، غير أنـــــي أصـــرخ فـــي أعماقي: "هيا تعال، امسكني، هيا ماذا تنتظر؟"، لكن شيئاً مـــن هذا لم يحدث ...وكان ذلك أمراً حسناً لأني شعرت أنه إذا مـــا أمسكني كما كنت أشتهي وأرغبُ فسيكونُ ردي الحتمي صفعةً على وجهه.

توقَّف المصعدُ. خرجت وأنـــا أعـــضُّ شفتـــي الســـفلى من الحَنَق، وتوجَّهت إلى غرفتي مطرقـــةً واجمـــةً. رافقنـــي "مارك". استدرْتُ فجأةً ووجدْتُ أنَّ فمي يكاد يلامـــس فمَـــهُ. في النهاية ، تقابلت شفاهُنَا، ورحنا نُقبِّل بعضنا. لم تكن القُبَـــلَ من النوع الحارِّ، بل دون الوسط؛ لذلك كان لديَّ متَّســـعٌ مـــن الوقت لأفكِّر: "لا ... إنـــه الرجـــل المناســـب. إنـــه بـــالفعل الرجل غير المناسب".

ثم افترقنا. نظرت من فوق كتف "ماركو" إلـــى طـــول الممر، وبالتحديد إلى النقطة التي كان يتقابل فيها المصعـــدان. أحدهما المصعد الذي صعدنا فيه، وكان قد بـــدأ يـــهبط الآن، في حين كان باب المصعد الثاني مفتوحاً، وكان ثمـــة رجـــلٌ واقفٌ يتطلَّعُ نحوي. أدركت على الفـــور أنـــه كـــان يراقبنـــا ونحن نقبِّل بعضنا. كان رجلاً أشقرَ متوسط العمـــر، ذا شعـــر

قصير، وفي مقدمة رأسه غرة. كان وجهه أحمر وعيناه زرقاوان مع حَوَلٍ بسيطٍ. كان ضئيلَ الجسم، لكنه ممتلئ، يرتدي بنطالاً أزرقَ وقميصاً ذا أكمامٍ قصيرة عليها شارةُ المرساة. لا بد أنه بحَّار. ولعلها للمرة الأولى في حياتي، ظهرت على حين غِرَّةٍ الغريزةُ التي لم أكن أظنُّ أنها توجد عندي. همست في أذن "ماركو": "هناك أناسٌ، يجب أن تذهب الآن وسنرى بعضنا غداً". صافحتُهُ وكدْتُ أدفعه بعيداً. هُرِعَ "ماركو" مبتعداً، ثملاً بالسعادة. انحنيت قليلاً لأولجَ المفتاحَ في ثقب الباب. لكنَّ يدي كانت ترتعش بسبب تلك الغريزةِ التي تفجَّرَتْ أخيراً. لم أتمكَّنْ من إدخال المفتاح، وشعرتُ في الوقت نفسه أنَّ البحَّارَ يدنو مني من الخلف. قلت لنفسي: "آملُ أن يكون قد رآنا، وأن يَجِدَ في نفسه الشجاعة الكافية كي لا يحترمني". وعلى الفور انزلقت يدٌ حمراءُ غليظةٌ مكسوَّةٌ بالشعر الأشقر فوق يدي. أمْسَكَتِ المفتاحَ، وأدْخَلَتْهُ بثباتٍ في ثُقْبِ البابِ، ودفعني الرجل إلى داخل الغرفة، أغلقَ البابَ ورائي وأشعلَ الضوءَ.

حسابيٌّ ... لقد تَمَّ كلُّ شيءٍ كما يتمُّ حسابُ تمرينٍ حسابيٍّ. ألا أني عندما رأيتُ الرجلَ ذا الغُرَّةِ الشقراء وهو يتقدم نحوي، ويداه ممدودتان للإمساك بي، ببنطاله الأزرق وقميصه المرسوم عليه المرساة، وقد علت وجهَهُ ابتسامةٌ كشفت عن أسنانِهِ تلاشت غريزتي تماماً وصحت به: "لا تقترب مني".

كان واثقاً من نفسه. هزَّ رأسَهُ وخطا خطوةً إلى الأمام. ثم سرعانَ ما انسحبَ إلى الحمَّام حيث دخل بسرعةٍ. أمسك أنبوبةَ الدش وفتحَ الصنبور، ووجَّهَ الماءَ المتدفِّقَ بقوَّةٍ إلى وجهه. كان فندقاً عصرياً، وكان الماءُ يتدفَّقُ بقوَّةٍ كبيرةٍ. ومثل بحَّارٍ حقيقيٍّ، معتادٍ على أمواج البحر، وقفَ بثباتٍ،

بوجههِ القرمزيِّ أمام الماء المتدفّق، الذي أخـذ ينـهال عليـه بغزارةٍ. ثم خطا خُطوةً إلى الوراء، كأنَّه يطمئنني، ثـم قـال بالإنكليزية ببطءٍ وهدوءٍ: "أنا آسف ... ظننتُ...

فأجبته بالإنكليزية أيضاً: "لقد ظننْـتَ أنـه بإمكـانك أن تضاجعني لأنكَ رأيتَ ذلكَ الرجلَ يقبّلنِي، أليس كذلك؟؟".

ـ نعم، ربما.

ـ حسنٌ، ابتعدْ الآن. اخرج فوراً، وإلا صرخت...

ثم لا أعرف لماذا سألني عن جنسـيتي. كنـتُ لا أزال أرمقه، وأنبوب الدش في يدي وأجبتُهُ عن سؤالِهِ. فقـال لـي من باب اللباقة إنه يحبُّ رومـا كثـيراً، ثـم انحنـى قليـلاً وخرج.

أصبحت وحيدة الآن. كان "ماركو" خجولاً وشاعرياً ولم أحبه، وكان البحار حسابياً ولم أحبه أيضا. وقفتُ أمام المـرآةِ حدَّقتُ فيها وقلت بصوت عالٍ: "مجردة من الغريزة".

المسكين

لا يعرف الناسُ الشيءَ الكثيرَ عن أنفسهم، وعن الناس الذين هم دونَهم أو الذين يتفوَّقونَ عليهم. أما أنا فقد قطَعْتُ شأواً بعيداً في التفكير أني دونَ الجميع. فأنا لم أولد قويَّ البِنيةِ، بل يمكن القول إني وُلِدْتُ هشاً ضعيفاً كالفخّار. نعم، فأنا أحسَبُ نفسي هشاً كالزجاج، بل حتى أرق أنواع الزجاج. وكان ذلك يجعلني أبْخِسُ قَدْرَ نفسي كثيراً.

وكنت أخاطب نفسي قائلاً: "هيا عدِّدي صفاتي: القوة البدنية: صفر ـ فأنا ضئيل الجسم، نحيف، رخو المفاصل، مضعضع، وذراعاي وساقاي أشبه بالعيدان، فأنا مثل عنكبوت. الذكاء: أعلى من الصفر بقليل، وذلك لأني لم أتمكَّنْ أبداً من أن أرقى فوق مستوى غاسل صحون في فندق. الشكل العام: أقل من صفر ـ فوجهي ضيِّقٌ ناحلٌ أصفر، وعيناي بشعتان ليس لهما لونٌ محدَّدٌ، وأنف يصلح لوجه أعرض من وجهي مرتين، فهو كبير وطويل، مستقيم، وينحدر نحو الأسفل، لكنه يلتفُّ إلى الأعلى عند النُّقرَةِ كسحلية مرفوعة الأنف. أما الصفات الأخرى ـ كالشجاعة والسرعة والجاذبية وخفة الروح ـ فمن الأفضل حقاً أن لا نتحدث عنها أبداً ".

لذلك، كان من الطبيعي، وبعد التوصُّل إلى هذه

الاستنتاجات، أني لـم أحـاول قـط التقـرُّب مـن النسـاء. والمرأة الوحيدة التي حاولت مغازلتها والتقرب منـها كـانت خادمة في الفندق، أعادتني إلى رشدي علـى الفـور بكلمـة واحدة: "أيها المسكين". لذلك، أخذت تترسَّـخ لـديَّ القناعـةُ أني لا أسـاوي شيئـاً، وأن أفضـلَ شـيءٍ أفعلُـه هـو أن ألوذَ بالصمت، قابعاً في ركنٍ من الأركـان لكـي لا يتعـثَّر أحدٌ بطريقي ولا أتعثر بطريق أحد.

يمكن لأي عابر سبيل يمرُّ في الشارع الواقع خلفَ فندق "روما" حيث أعمل، في الساعات المبكِّرةِ من بعد الظـهر، أن يرى صفّاً من النوافذ المشرعة على مستوى الأرض، تنبعـث منها رائحةُ الغسيل.

وإذا اخترقت عيناه ذلك المكانَ المظلمَ، سـيرى أكوامـاً وتـلالاً مـن الصحـون التـي تصـلُ إلـى السـقف. تلك هي البقعةُ النائيةُ من العالم التي اخترتها لأقبعَ فيـها، ولا أظهرَ إلى العالم.

لكن يا له من قدَرٍ عجيبٍ غريبٍ. فـآخرُ شـيء كنـت أتوقعه هو أن يأتي أحدٌ إلى تلك البقعةِ، إلى ذلك المطبخ نفسه، ويأخذ بيديَّ بَغْتَةً ويقتلعني مثل زهرةٍ متواريةٍ بين الأعشـاب. لقد كان ذلك الإنسان هو "إيدا"، العاملة الجديدة في حجرة غَسْلِ الأطباق، التي حلت مكان "جوديتا"، التي أخذت إجازة لتضـع مولوداً.

كانت "إيدا" بين النسوة، كما كنـت أنـا بيـن الرجـال "امرأة مسكينة ". فقد كانت ضئيلـة الجسـم، نحيفـة، باديـة العظام، غيرَ ذاتِ شأنٍ. بَيْدَ أنـها كـانت مفعمـةً بالعاطفـة، دائبةَ الحركة، مرحةً، شيطانةً.

وسرعان ما توطَّدَتْ بيننـا أواصـرُ الصداقـةِ، وذلـك لأنه كـانت تجمعنـا عوامـلُ مشتركـةٌ، ألـم نقـف أمـام

الصحون نفسِها، ونغسلُ بالمياه نفسها؟.

ونجحت "إيدا" أخيراً في محاولاتها في استمالتي لدعوتها إلى السينما. وبالفعل، ومن باب التهذيب، دعوتُها في أحد أيام الآحاد إلى السينما، وفوجئت، عندما أمسكَتْ يدي في الظلام الذي يغشى دارَ السينما وشبكَتْ أصابعَها الخمسة بين أصابعي. تبادرَ لي أنَّه يوجد خطأ ما، وحاولتُ إفلاتَ يدي منها، لكنَّها همسَتْ في أُذُنِي ودَعَتْنِي أن أبقيها كما هي، فما الضَّررُ في إمساك أيدينا؟.

وعندما خرجنا، قالت لي إنها كانت تراقبني منذ مدة. منذ اليوم الأول الذي بدأت تعملُ فيه في الفندق. وإنها منذ ذلك الحين، لا تفكّر إلا بي. وقالت إنها تَأمُلُ كذلك أن أكونَ قد بَدَأتُ أكِنُّ لها حباً، وذلك لأنها لم تعد تستطيع العيشَ دوني. كانت هذه المرة الأولى التي تقول لي فيها امرأة، حتى امرأة مثل "إيدا"، شيئاً من هذا القبيل، فطار صوابي وفقدت عقلي. وأجبتُها على جميع الأسئلةِ التي طرحَتْها عليَّ بالإضافة إلى تساؤلاتٍ عديدةٍ أخرى.

كانت الدهشة تتملّكني. على الرغم من أنها لم تكف عن القول إنها مولعةٌ بي، فأنا لم أكن مقتنعاً بذلك. لذلك، عندما كنا نخرجُ معاً، لم أكن أتمالك نفسي عن اللهج بهذا الموضوع، فقد كنتُ أجدُ متعة فائقة وأنا أستمع إليها وهي تقول لي هذه الكلمات، لأني كنتُ أجدُ صعوبة في تصديقها. فكنت أقول لها: "قولي لي الآن. أودُّ أن أعرفَ ماذا تجدين فيَّ؟ وكيف وقعْتِ في حبي؟ وهل تصدقين ذلك؟".

وكانت "إيدا" تتعلّق بذراعي بكلتا يديها، وترفع وجهاً

رائعاً نحوي وتجيب: "إني أحبك لأنك تمتلك جميعَ الصفات الرائعة.. إني أراك الكمالَ المتجسِّدَ الحيَّ". وكنت أكررُ دون أن أصدِّقها: "جميعُ الصفات الرائعة؟ لكني لم أكن أعرفُ ذلك من قبل". "نعم كل الصفات .. فقبلَ كلِّ شيءٍ أنت رائعُ الجمال".

لم أكن أتمالك نفسي عن الضحك فأسألها: "هل أنا جميل؟ لكن هل نظرت في وجهي ملياً؟". "نعم.. نظرت ملياً، وإني أنظر إليكَ باستمرار ولا أتوقف عن ذلك". "ولكن ماذا عن أنفي؟ هل نظرتِ قط إلى أنفي؟". فتقول: "إن أنفَك هو الذي أحبُّه بشكلٍ خاصٍّ" ثم تُمْسِكُ به بين إصبعيها وتهزه كأنه جرسٌ وهي تردد: "أنف .. أنف .. ولولا هذا الأنف لما كنت أعرف ما سأفعل".

ثم تضيف قائلة: "فضلاً عن ذلك، فأنت شديد الذكاء". "ماذا؟ أنا ذكي؟ لكن الجميعَ يقولون إني غبيٌّ". فتجيب بمنطقٍ أنثويٍّ: "إنهم يقولون ذلك لأنهم يحسدونك، إلا أنك خارق الذكاء.. فعندما تتكلم أصغي إليك وأنا فاغرةٌ فمي .. إنك أذكى إنسانٍ رأيته في حياتي".

وأستأنف بعد دقيقة: "ولكنك لن تقولي إني قويٌّ .. إذ لا يمكن الادِّعاء بذلك". فتجيب بحماسٍ: "نعم.. إنك قويٌّ .. قويٌّ جداً جداً". كان ذلك حقاً كثيراً، ولا أعود أتمكَّن من الردِّ عليها فأمْسِكُ عن الكلام، إلا أنَّها تتابع قائلة: "بالإضافة إلى ذلك، وإذا كنت تريد حقاً أن تعرف، فإن لديك شيئاً أحبُّه أكثرَ من أي شيء". فأسألها على الفور: "وما ذلك الشيء.. أريدُ أن أعرفَ؟"، فتجيب: "لا أعرف حقاً بماذا أجيب .. إنه صوتُكَ .. تعابيرُكَ .. الطريقةُ التي تتحرَّك فيها. وإني متأكِّدةٌ أن أحداً غيرَك لا يملك ما تملكه أنت". بالطبع لم أكن أصدِّقها، وكنت أجعلُهَا تكرِّر هذه الكلماتِ لأنها

كانت تُدْخِلُ السعادةَ إلى نفسي، خاصةً أني أجدها تتعارض مع ما كنت أعتقده.

لكني يجب أن اقرَّ أنَّه مع مرور الأيام، أخذت هذه الأفكار تترسَّخُ في راسي. وكنت في بعض الأحيان أقول لنفسي: "افترض أنَّ ما تقوله لك صحيحٌ". إلا أن ذلك لم يغيِّر من قناعتي بما كنت أعتقد به، غير أن ملاحظاتِ "إيدا" تركتني في حيرةٍ من أمري.

ففي تلك الكلمةِ، أحسستُ أنَّهُ يكمن اللّغز. فمن ذلك "الشيء" أصبحت أعرف لماذا تحبُّ النساءُ الأحدبَ والأعرجَ والقزمَ والشيخَ بل حتى الوحشَ .. ولكن لماذا لم يحبَّنِي أحدٌ أيضاً؟ إذ لم أكن أحدبَ أو قزماً أو مسناً أو وحشاً.

قررنا أنا و"إيدا" ذات يوم الذهاب إلى سيركٍ كان قد نصب خيامه أمام ساحة "أركيولوجيكا". كنا نشعرُ بسعادةٍ كبيرةٍ. وعندما دخلنا إلى داخل الخيمة الكبيرة، جلسنا في القسم المخصَّص للمقاعدِ الرخيصةِ. كنا ملتصقين، ونمسك أيدي بعضنا.

وكانت تجلس إلى جانبي صبيةٌ فارعةٌ، شقراءُ، جميلةٌ، وإلى جانبها من الطرف الآخر، كان يجلس شابٌّ أسمرُ، ضخمُ الجثة تبدو عليه سيماء القوة. غليظٌ رياضيٌّ الشكل قلت في نفسي: "إنه زوجٌ أنيقٌ"، لكنني سرعانَ ما نسيتُهُمَا، ورحْتُ أركّزُ اهتمامي على السيرك.

كانت ساحة السيرك المكسوَّةُ بالرمل الأصفر لا تزال فارغةً. وعلى الطرف الآخر، كانت توجد منصَّةٌ تربَّعت فوقها فرقةٌ موسيقيةٌ نحاسيةٌ يرتدي أفرادها بَذّاتٍ حمراءَ. ولم تكف لحظةً واحدةً عن عزف أناشيدَ عسكريةٍ، وبرز أخيراً أربعةُ مهرجين، اثنان منهم قزمان. كانت وجوههم بيضاءَ ويرتدون سراويلَ فضفاضةً، وعلى الفور أخذوا يلقون النكات وراحوا

يصفعون ويركلون بعضهم بعضاً. فغشيت "إيدا" من الضحك حتى بدأت تقحُّ وتسعل.

ثم بدأت الفرقة تعزف معزوفة حيوية معلنة عن بدء دور الأحصنة، فدخلت الساحة ستة أحصنةٍ، ثلاثة مبرقشة باللون الرماديّ والأخرى بالأبيض، وأخذت تدور حول الحلقة. وكان مدربُها الذي يرتدي بَدَّةً حمراءَ مذهبة، يقف في الوسط ويلسع بسوطه الطويل.

دخلت امرأةٌ ترتدي تنورةً من الحرير الشفاف وبنطالاً ضيقاً أبيضَ. وراحت ترقص ثم أمسكَتْ سَرْجَ أحدِ الأحصنة وأخذت تجري بجانبه، ثم تمتطيه وتنزل عنه، تصعد وتهبط، والأحصنة كلها تجري حول الساحة المستديرة. في البدء كانت تَخُبُّ ثم أخذت تعدو. وعندما خرجت الأحصنة، عاد المهرِّجون وراحوا يقفزون فوق بعضهم بعضاً ويركلون بعضهم بعضاً.

ثم جاءت أسرةٌ من البهلوانيين. أبٌ وأمٌّ وطفلٌ صغيرٌ، كانوا يرتدون ثياباً ضيقة. صفقوا، ثم تعلّقوا بحبلٍ ذي عُقَدٍ، وأخذوا يصعدون عليه حتى وصلوا إلى سقف الخيمة. وهناك بدأوا يلقون المراجيحَ التي أخذت تتأرجح إلى الأمام والوراء، وكانوا حيناً يتعلّقون بها بأيديهم، وحيناً بأقدامهم، ثم أخذوا يرمون الطفلَ بينهما كأنه كرةٌ.

قلت "لإيدا" وقد ملأني الإعجاب: "انظري .. كم أتمنى أن أكون بهلواناً .. أريد أن أرمي بنفسي في الهواء، ثم أمسك الأرجوحة بساقيَّ". أما "إيدا"، فقد اقتربت مني وأجابتني بلهجتها التمجيدية المعهودة: "إنها مسألةُ تدريبٍ وممارسةٍ. وإذا ما تدرَّبْتَ فسيكون بإمكانكَ أن تفعلَ ذلك أيضاً".

نظرَتْ إليها الصبيةُ الشقراءُ وهمسَتْ في أذُنِ رفيقها

وشرعا يضحكان. بعد ذلك جاء دور الأسُودِ. إذ دخل عددٌ من الشباب في معاطفَ حمراءَ وأخذوا يلفُّونَ السجادةَ التي كان يلعبُ عليها لاعبوا البهلوانيات، ثم حملوها دون أن ينتبهوا إلى أنّهم لفُّوا داخلها أحد البهلوانيين. وعندما رأت "إيدا" الوجهَ الأبيضَ بارزاً من طرفِ السجادة، كادَ يُغشى عليها من الضحكِ. وبسرعةٍ خاطفةٍ وبمهارةٍ فائقةٍ.

وضع الشبانُ قفصاً كبيراً من النيكل وَسَطَ الساحةِ، ومع قرع الطبول، ظهر رأسُ الأسدِ الأوّلِ الضخمُ من خلال بابٍ صغيرٍ. ودخل خمسةُ أسُودٍ ولبوةٌ بَدَتْ في مزاجٍ متعكّرٍ فراحت تزأر. ودخلَ أخيراً المروِّضُ. رجلٌ ضئيلٌ، حسنُ الهيئة، يرتدي معطفاً أخضرَ موشَّى بالذهب. وعلى الفورِ، انحنى أمام الجمهور، وأخذ يلوِّحُ وبإحدى يديه سوطٌ، وباليد الأخرى بعصا ذاتِ خُطّافٍ في طرفها. وراحت الأسُودُ تدورُ حولهُ وهي تزأرُ. وأخيراً توجَّهَ نحو الأسود وراح يخزها بمؤخّرةِ الخُطّافِ وأرغمها الواحدَ تلوَ الآخرِ على الصعودِ على كراسٍ صغيرةٍ لا تلائم إلا القطط، وهي تزأر وتكشِّرُ عن أنيابها. ثم مد أسدانِ أو ثلاثةٌ أقدامَهم تجاه المدرب عندما مرَّ قربها. همسَتْ "إيدا" في أذني: "وماذا لو التهمَتْهُ؟" كانت تتمسَّكُ بذراعي بقوَّةٍ. وعندما قُرعت الطبولُ، توجَّه المدرب إلى أكبر الأسود سِنّاً والذي بَدا أنَّ النومَ قد غَلَبَ عليه، والذي لم يزأر قط؛ وفتحَ فمَهُ، ووضعَ رأسَهُ داخلهُ ثلاثَ مراتٍ متتاليةٍ. قلت "لإيدا" في غمرةِ التصفيق الذي أعقبَ هذا المشهدَ: "لن تصدقيني .. إني أجد رغبةً في الدخولِ إلى ذلك القفص وأضعُ رأسي في فم الأسدِ أيضاً".. عندها انفجرت الصبيَّةُ والشاب الرياضي في الضحكِ وهما ينظران إلينا.

هذه المرّةَ لم نستطِعْ تجاهلَ أنـهما كانا يضحكان علينا.. فاجتاح "إيدا" الغضبُ وهمست في أذني: "إنـهما يضحكان علينا.. لماذا لا تقل لهما: إنـهما قليلا الذوق؟"، في تلك اللحظة نفسها، قُرِعَ جرسٌ، ونـهضَ الجميعُ كما خرجت الأسُود وهي مطأطئةُ الرأسِ عبر البابِ الصغيرِ. وهكذا انتهى الفصلُ الأولُ من العرضِ.

عندما غادرنا الخيمة، كان الشابُّ والصبيةُ يسيران أمامنا. وأخذت "إيدا" تلحُّ في قولها: "يجب أن تقول لهما: إنهما قليلا الذوق.. وإذا لم تفعل ذلك فإنك جبان". أثارت "إيدا" حَمِيَّتِي وقرَّرْتُ أن أقتربَ منهما.

كانت خارج الخيمةِ الكبيرةِ خيمةٌ صغيرةٌ، جُعلت حديقة للحيوانات التابعة للسيرك. وعلى أحد جانبيها، كان ثمَّة صفٌّ من الأقفاصِ التي تضمُّ حيواناتٍ مفترسة، وعلى الطرفِ الآخرِ، كانت تمتد مساحة من الأرضِ مغطّاةٌ بالتبنِ كانت تسرح فيها الحيواناتُ الأليفةُ كالحمارِ الوحشيِّ والفيلةِ والأحصنةِ والكلابِ. عندما دلفنا إلى الخيمةِ شبه المعتمة، رأينا الشابَّ والصبيةَ وهما يقفان أمام قفصِ الدبِّ. وكانت الصبيةُ منحنيةً إلى الأمام وتتطلع إلى الدب الذي كان مكوَّراً ويغطُّ في سُبَاتٍ عميقٍ. وكان فروه الناعمُ يلامس القضبانَ. أما الشابُّ فكان يشدُّها من ذراعِها.

توجَّهْتُ مباشرةً نحو الشاب وبادرته بصوتٍ ثابتٍ: "قل لي.. هل كنتما تضحكان علينا؟".

التفتَ الشابُّ قليلاً وأجاب دون تردُّدٍ: "لا .. كنا نضحك على ضفدع يدَّعي أنه ثعلبٌ".

ـ أظن أنك تعني أن الضفدع هو أنا؟.

ـ ما دام الأمر كذلك فاقبل بالأمر.

كانت "إيدا" تدفعني إلى الأمام وهي تمسكُ بذراعي. أجبتُهُ بصوتٍ عالٍ : "هل تعرفُ من أنتَ؟ إنك لست إلا تافهاً وجاهلاً". فَرَدَّ بفظاظةٍ: "هكذا إذن!! فقد بدأ الضفدعُ في النقيق، أليس كذلك؟".

في هذه اللحظة، أخذت المرأة تضحك. لكن "إيدا" قاطعتْهَا بصوتٍ كأنه فحيحُ أفعى: "لا يوجد شيءٌ يستدعي الضحك .. ومن الأفضل لك أن تتوقَّفِي عن التمسُّح بزوجي .. هل تظنين أني لم أرك؟ .. لقد كنتِ تُحُقِّيْنَ ذراعك بذراعه طوال الوقت".

اعترتني دهشةٌ كبيرةٌ لأني لم انتبه لذلك. ففي أغلب الظنّ، أنها ربما مسَّتني بمرفقِها لأنها كانت تجلس إلى جانبي، فردت عليها الفتاةُ بسُخْطٍ: "فتاتي العزيزة أنتِ مجنونةٌ".

ـ لا أنا لست مجنونة. فقد رأيتك بأم عيني وأنتِ تتمسحين به.

ـ لكن ما الذي يجعلك تظنين أني سأعير شخصاً مسكيناً مثل زوجك أيَّ انتباه؟.

قالت ذلك بازدراءٍ شديدٍ ثم أضافت: "إذا كان عليَّ أن أتمسَّحَ بأحدٍ ما، فسأختار رجلاً حقيقياً. أما زوجك فهو رجل وقِّ رؤيتكِ له فقط"، وأمسكَتْ بذراع صديقِهَا كما يفعل اللحَّام وهو يرفع شريحةً من اللحم ليعرضها على الزبون وقالت: "هذه هي الذراعُ التي سأتمسَّحُ بها .. انظري إلى هذه العضلات ... انظري إليها ما أقواها!!".

وهنا تقدَّمَ الشاب مني وقال بلهجة توعديَّةٍ: "هذا يكفي.. هيا امضِ من هنا والأفضل لك أن تفعل ذلك".

صحت بنبرة ساخطة وقد وقفت على رؤوس أصابعي

لكي أصبح قريباً من مستواه: "من قال لك ذلك؟".

أما المشهدُ الذي أعقب ذلك فلن أنساه ما حييت إذ لم يجبني الشابُّ بل أمسكني بكلتا ذراعيه بَغْتَةً، ورفعني في الهواء مثل الريشةِ. وكما قلت، فقد كانت في الجهة الأخرى فسْحَةٌ من الأرض مغطاةٌ بالتبن حيث تسرح الحيواناتُ الأليفةُ. وكانت تقف وراءنا مجموعةٌ من الفِيَلَةِ ــ أبٌ وأمٌّ وطفلهما الذي كان بحجم حصان تقريباً ــ وكانت الفِيَلَةُ تقف في ركنٍ مُعْتِمٍ، وأكفالها ملتصقةٌ بعضها ببعض. وهكذا رفعني ذلك البغلُ الكبيرُ ورماني فجأةً فوق ظهرِ الفيلِ الصغير. ولعلَّ الحيوانَ حَسِبَ أن لحظةَ دخولِ ساحةِ السيركِ قد حانت، فأخذ يخبُّ وأنا على ظهره، على طولِ الممرِّ المحفوف بالأقفاص. أخذ الناسُ يتدافعون في كلِّ الاتجاهات، وكانت "إيدا" تجري ورائي وقد بدا عليها الرعب وهي تصرُخ.

أما أنا فبعد أن فرشخت فوق الفيل الصغير، رُحْتُ أحاول عبثاً إمساكَ أُذُنَيْهِ. وعندما وصلَ إلى نهاية الممر، انزلقتُ عنه ووقعْتُ على الأرض، وأصيبت مؤخِّرةُ رأسي بالأذى.

لا أعرفُ ما حدث بعدئذ لأني فقدتُ الوعيَ. وعندما ثُبْتُ إلى وعيي ، وجدت نفسي في مركزٍ للإسعافات الأولية، و"إيدا" تجلسُ إلى جانبي وتمسكُ بيدي. وعندما شعرت بالتحسُّنِ، عدنا إلى البيت دون أن نشاهدَ الفصلَ الثاني من العَرْض.

في اليوم التالي قلت "لإيدا": "كان الخطأ خَطَأَكِ .. لقد حشوتِ رأسي بهذه الأفكار، وجعلتني أظنُّ في نفسي أموراً لا يعلمها إلا الله .. لكنَّ تلك المرأةَ كانت محقَّةً تماماً عندما قالت

إني لست إلا رجلاً مسكيناً".

غير أن "إيدا" أمسكتني من ذراعي وراحت تُحَدِّقُ بي وقالت: "لقد كنتَ رائعاً. لقد انتابه الذعرُ ولهذا السبب ألقى بك على ظهر الفيل. كم كنت رائعاً وأنت تمتطي ظهر الفيل، من المؤسف أنك انزلقت ووقعت".

هكذا إذاً، فلم يكن ثمة فائدة. إذ كنت في نظرها شيئاً وعند الآخرين شيئاً آخر. بَيْدَ أنَّه يمكنكَ أن تعرفَ ماذا ترى النساءُ عندما يقعنَ في الحب.

المحتويات